samaryazbek@hotmail.com www.nesasy.com/samary.html

سمر يزبك

طـــفــلة الســـــماء

رواية

طفلة السماء رواية سمر يزبك
samaryazbek@hotmail.com www.nesasy.com/samary.html

الفصل الأول

خرجت من البيت حاملة حقيبة أمي الجلدية، التي ورثتها عن جدتي. حقيبة منتفخة بالأشياء الصغيرة، لم يخطر لي يوماً أنها ستكون من الذكريات التي سأسعى إلى تكديسها في مخيلتي: التمثيل الصغيرة الكريستالية والبرونزية، الصليب الذهبي الموروث عن عائلة جدتي، قماش ملون بزهور عباد الشمس، قلادة فضية، وصور عتيقة لأمي وهي ترتدي أحدث فساتينها، وتتأبط ذراع أبي في الأشهر الأولى لزواجهما. صورة تحت قوس النصر في باريس أواسط الستينات، صورة أخرى على نافذة مثقلة بالورود تطل على شوارع مدينة البندقية المائية. صورتي ولم أتجاوز بضعة أشهر، على شرفة البيت العتيق المطل على الميناء، وقمصان نوم حريرية وشفافة خبأتها أمي منذ طفولتي استعداداً لليوم الذي أكبر فيه وأصبح عروساً. كتاب طاغور. رماد احتفظت به من حريق كتب جنوني. وضعته في منديل أزرق مطرز بحواشي ذهبية، كانت أمي أودعت فيه حليها منذ زمن بعيد. كل تلك الأشياء حشوتها بسرعة في الحقيبة قبل هروبي. رئتاي تنتفخان داخل صدري، وتتحولان إلى بالونين. لن تنفجرا بالتأكيد. سأتنفس ببطء، وأرخي رأسي بهدوء فوق صدري.

سأترك البيت والقرية المرمية بين البحر والجبل، وزهور شقائق النعمان الممتدة برحابة أمام بيتنا، بين حقول الفول الواسعة، المختبئة تحت أشجار الليمون. كل ما حملته في قلبي من المساحات الشاسعة للفضاء الأخضر المطل على البحر جعلته يدخل في ذاكرتي وأنا أمسح بعيني ما يحيط بي. حتى الأحجار الصغيرة المهملة على جانبي الطريق والتي لم انتبه لوجودها قبلا، كانت تبدو وكأنها قطع أثرية نادرة، أتمعنها طويلاً. انحني، اتلمسها وأعاود الركض، كنت لا أريد الالتفات إلى الوراء. قدماي تغذان السير، تمشيان منفصلتين عن جزئي العلوي فألحقهما بلهاثي الشبيه بأصوات جراء ضالة. صفير حاد يمزق أذني وأنا أحاول الهروب منه، أضغط بكفي على رأسي فيزداد الصفير، أتوقف قليلاً بين أشجار السرو العملاقة، وأتخيل أنها سترتمي فوق جسدي المرتجف، اغمض عيني ولا أحاول الالتفات إلى أضواء القرية الخافتة، كل ما علي فعله هو الاسراع قبل أن يطلع الفجر. أعب رائحة الصباح

طفلة السماء رواية سمر يزبك
samaryazbek@hotmail.com www.nesasy.com/samary.html

القادم من البحر فأشعر برغبة للركض ثانية، شعري القصير لا يساعدني على الدفء، خصلاته الحادة تحفر خدي بسياط من الجليد، كان هناك عواء لم أسمع مثله من قبل، ليس عواء كلاب. عواء مخيف يأتي من البساتين البعيدة المحيطة بقريتنا، كانت جدتي تقول إن الضباع تتكاثر في قريتنا أكثر من البشر حتى أن البشر صاروا يشبهون بها، وتغمز لأمي بخبث وهي تنظر باستعلاء إلى ما يحيط بها من قرويين ثم تضيف: إذا بقيت هنا ستأكل الضبعة أولادك.

لابد أنها الضباع وربما ستلحق بي، التصقت رجلاي بظهري وتعالت أنفاسي وسبقت الريح، وأنا أركض خالية من أي شيء سوى الابتعاد. تراقصت أمامي كلمات صغيرة كانت شطراً لبيت من الشعر في ذلك الوقت لم أعرف الشطر الثاني لكن صوت جدتي وهي ترن بحنجرتها ملأ المكان، ممسكة كتاباً قديماً، وأنا أمامها أنشد بصوت عال: على قلقٍ كأن الريح تحتي.. لم يتوقف الصوت ولم أتوقف عن الركض.. تلاشت صورة جدتي وبقيت الكلمات.

فريتنا "عين الديب"، لا تبعد عن اللاذقية سوى ثلاثة كيلو مترات. تبدأ ببيوت صغيرة متناثرة على جانبي طريق السرو، وتنتهي بتجمع سكاني كبير. تحيطها بساتين الليمون من الجهات كافة، وتكاد تشكل دائرة من حولها. يربطها بالمدينة طريق إسفلتي ضيق، محاط بأشجار سرو، يستطيع الناظر أمامه أن يلمح الخارج من القرية والداخل إليها، لذلك عدت أشبه بضاحية تتبع اللاذقية. ولقربها من المدينة، يذهب أغلب سكانها إلى اللاذقية مشياً على الأقدام، مستمتعين بالطريق الساحر الذي يميز قريتنا عن باقي القرى، ويجعل منها أسطورة لأقاويل وحكايات رويت منذ أزمان بعيدة. حكايات عن صبايا وشباب اختلفوا بين الأشجار الكثيفة المحيطة بالبساتين، ولم يظهروا ثانية. بعض أهالي القرية يؤكدون أنهم يرونهم بين الغيوم، مصطحبين معهم أطفالاً تكلل وجوههم الضحكات، ويلقون على ذويهم التحيات والابتسامات. أهل المدينة أطلقوا عليه اسم "طريق العشاق" لأنهم وجدوا فيه ملاذاً بعيداً عن عيون الفضوليين.

هذا الطريق لم يحضن العشاق في تلك الليلة ولم تهتز أشجاره لنداءاتهم المحزونة. فقط نباح الكلاب ونقيق الضفادع، والهسهسات الخافتة التي تنطلق بين خطوة وأخرى، رافقتني في الرحلة التي اعتقدت أنها نهاية العالم.

سأترك عين الديب والطريق الأسطوري، الذي كنت إحدى بطلاته. لن تحملني الغيوم ثانية لإلقاء التحية على شواهد القبور التي تركتها وحيدة دون ورود.

حرية الإساس بأن أضع قدمي حيث أشاء، أشعرتني بثقل وجودي على الأرض. سوف أمشي وحيدة، دون محظورات المحيطين بي. لن أرى وجه ابن عمي الذي تحول إلى كابوس. منذ أن توفيت أمي وحتى لحظة موافقتي على الزواج منه، كان وجهه يأتيني مرعباً، فأتخيل الشر المكثف في العالم يتجمع في نقطة سوداء ويصنع عجينة ذلك الرجل.

مازلت أذكر اليوم الذي قرر فيه والدي تزويجي منه.

صمت وأنا أسمع قرار والدي. لم أرفض، وكأن الأمر لا يعنيني. عدت إلى صمتي، الذي لازمني دائماً في حضرته. كنت أتحين الفرصة لأقول "لا" في وجهه. ذلك النهار قام من مكانه شاعراً بسعادة غامرة، وعندما اختفى حسده داخل الغرفة، نهضت، وحاولت الصراخ، فعجزت، وعدت إلى كرسيي كلتصقة بقعر مظلم، أبدي. كان من الممكن قول"لا"، لكنني ما جرؤت يوما على إطلاق هذه ال"لا" في وجه أبي، فلا أذكر أنه تحدث إلي بأي أمر من الأمور، أو أخذ رأيي في قضية ما، كان وجودي في البيت مثل أي قطعة أثاث. ومع أخي الصغير علي كنا نشكل كائنات شبه مرئية، فلا يسمح لنا بالكلام في حضوره وإذا أراد أحدنا التعبير عما يجول في خاطره ننتظر خروجه كي نهمس لأمي بما نريد، وبكثير من الخوف أيضاً. لأنها لم تكن أقل صرامة منه. وعلى الرغم من عطفها علينا إلا أنها كانت تخشى إفسادنا بالدلال، كما نبه أبى مراراً، خاصة فيما يتعلق بي، لأني بنت ولا يجوز الإفراط في دلالي.

كل ذلك صار تاريخاً قديماً، أتذكره بألم.

بعد موت أمي ازددنا رعباً، وصرنا نتحاشى النظر إلى أبي. يلاطفنا بعض الأحيان ويحاول ممازحتنا مستغرباً خجلنا الدائم منه، لكن الخوف الذي تفشى في عظامنا، منذ أن وعينا على صورته الأولى في مخيلتنا، كسيد أكبر للبيت، ومرجع أساسي في عائلتنا الكبيرة، جعل من مسألة مناقشته في أي أمر من الأمور أشبه بالدخول إلى وجر ذئب. لم يخطر في بالي مطلقا أن أقول له: لا. كنت أستغرب خوفي أمام أبي، ليس الخوف فقط، بل الرهبة والشعور بالضآلة، أمام كائن واحد، وفرد يختصر العالم بتقطيبة حاجبيه. ورغم الجرأة التي لم تنقصني يوماً، إلا أن خياله وحده كان كفيلاً بخلق الرعب في نفسي. عندما أحببت لأول مرة،

بحت بحبي علانية دون تردد، ولم يراودني أي إحساس بالخجل من مشاعري. شعرت أن الحب يحلق بي في عوالم الرجل وأسراره. لحظتها خفت أن يقرأ أبي أفكاري، فلم أنظر في وجهه. تخيلت الله على شاكلته، وسيعاقبني في اللحظة التي أفكر فيها بفعل شيء يغضبه، لذلك أدركت بعد زمن طويل أن تطرفي وجموحي في حب سالم لم يكن حقيقيا كما اعتقدت. كان هروباً من سطوة أبي. والجرأة التي دفعتني إلى ملاقاته في طريق العشاق، وأمام أهل القرية، لم تمن إلا رغبة مجنونة بالتحدي، تحدي خيبتي أمام نفسي، وتحدي الضعف الذي أشعر به بين يدي أبي.

في تلك الأزمان، جعلت من سالم التجلي الأول لأحلام امرأة بمسيح جديد. الاندفاعات الجريئة في تصرفاتي كانت لخلق غرابة أمام ما أشعر به من ضعف نحوه. وتأكيداً لإحساسي بالغرابة، طلبت من سالم، ذات مرة، موافاتي وراء بساتين الليمون المحيطة بقريتنا، بعد منتصف الليل. رفض في البداية متهماً إياي بالجنون والتهور، وطلب مني أن لا أقوم بأي عمل من هذا النوع، ولكني لم أستمع له وكانت آخر كلمة سمعها مني قبل أن اركض من أمامه: غداً تمام الواحدة سأنتظرك في نهاية طريق العشاق، عند باب البستان الشرقي.

في اليوم التالي، اجتزت البساتين وآخر البيوت البعيدة عن القرية. كنت ألف شعري بطاقية صوفية وألبس بدلة أحد العاملين في أرضنا. نظرت إلى السماء، كانت غريبة، كحيلة موشاة بالعيون. للمرة الأولى أحظى بفرصة استنشاق هواء ما بعد منتصف الليل، والذي كان محرماً على فتاة. لم يكن يسترني سوى الفضاءات الباردة، بينما قدماي ترطبهما الأعشاب البرية. نباح الكلاب حرك في دخلي خوفاً دفيناً، فكرت بالثبات فقط، والمشي بهدوء وسط هذه الكثافة المرعبة للعتمة من حولي. أستطيع السباحة في الفضاء كأي ذرة غبار حرة من كل شيء إلا من حالة وجودها الزائلة. وصلت إلى طريق العشاق بعد منتصف الليل وأنا أرتجف من الخوف.

وجدت سالم يرتعش من البرد، يتكئ على جذع شجرة سرو ضخمة، يضع يديه في جيبيه تماماً كما كان يفعل في المرة الأولى التي رأيته فيها، ورأسه في الأرض. رفعه، واندفع إلي، ولفني بذراعيه. كان يحرك رأسه بسرعة وبكافة الاتجاهات، وكأنه يبحث عن شيء ما. شعرت أن يديه ترتجفان وهما تحيطاني. نبضات قلبه، وأنفاسه الحارة في شعري. بقينا لدقائق

طويلة ونحن ندفئ جسدينا باختلاجاتنا. كان يعصرني، فأشعر أن أضلاعي ستتفتت بين يديه. بكيت، ورغبة محمومة في داخلي لخروج النار التي كانت تفور بين أضلعي. قال هامساً:

- هل خفت؟

- لا. لففت شعري بطاقية، سيعتقد من يراني أنني رجل. لن يخطر لهم أن بنتا قد تخرج ليلاً وحدها إلى مثل هذا المكان.

أجبته وأنا أنشج بطريقة فاضحة. أشار بالسكوت والعودة إلى البيت،واضعاً إصبعه على شفتي. نظرت في عينيه مستغربة، طلب مني الامتثال وأضاف: كان تصرفك تهوراً. شعرت أنه لم يضمني بحرارة ولم يقبلني، كما حلمت طويلاً. فقط تمنى لي عودة سليمة، ثم غرق في الظلام بسرعة.

غاب طيفه في السواد وكأن شيئاً لم يكن. كأن مغامرتي الليلية هذه مجرد حلم، وسالم لم يكن موجودا هنا منذ دقائق. خذلان عميق بدأ بالتسرب إلى أحلامي. وماذا بعد؟ لماذا أتيت إلى هنا؟ لألتقي برجل خائف من ظله؟ ما الذي كنت انتظره؟ أن يحملني بين ذراعيه كما يحدث في الحكايا؟ أن يطير بي إلى جزيرة مهجورة ويبني لي قصراً من الأحلام؟ لقد تركني وحيدة في بستان كثيف الأشجار بعد منتصف الليل، ولم يحاول حتى أن يوصلني إلى البيت. خاف من افتضاح أمره. كان يعرف نفوذ أبي، وما الذي يستطيع أن يفعله بشاب يلتقي بابنته سراً في الليل. اختفى سالم ووجدت نفسي وحيدة وسط الظلام وصوت الريح. تيبست قدماي وتدفقت الدموع من عيني، لماذا تركني وحيدة في هذا المكان؟ أي رجل هو؟ كان علي انتشال ثقلي فوق الأرض والعودة إلى البيت، كان من المحظور علي فعل ذلك، وقد فعلته، ما الذي تغير؟

تخيلت أشباحاً تخرج من باطن الأرض وتهزأ بي. لم أعر تلك الأشباح انتباها، لأني كنت مفتونة بحرق المحظورات من حولي. الرعشة الغريبة باكتشاف أحاسيس مجهولة وحيوات غير مقررة لي، كانت بالنسبة إلي السبب الرئيس الذي دفعني للخروج ليلا دون خوف، وربما كان ذلك هروباً من الموت في نهاية الأمر، أو رغبة محمومة في الخلود، وتثبيت لحظات الزمن الغارقة في الزوال.

لم استطع أنا، أو أي شخص يحيط بوجودي، فهم اندفاعاتي المتطرفة نحو الحياة، والتصرفات الغرئبية واللامنطقية التي جعلت من حياتي دوامة فوران وقلق ولعنة على عائلتي.

وجدت الأنوار مضاءة في البيت على غير العادة.

توقف قلبي، وشعرت به يتهاوى إلى ركبتي.

أسرعت الخطى. انتصب أبي واقفاً أمامي، جبلاً من نار، وزوبعة تبتلع وجودي. توقفت أمامه ولم أعرف ما الذي علي فعله.

سأقول له بجرأة إنني كنت مع سالم وراء بساتين الليمون. سأخرج عن صمتي. هكذا فكرت، وأنا أحاول رفع عيني إلى وجهه. لكني لم أنبس ببنت شفة، وابتلعت ريقاً مريراً من الدهشة.

الخوف الذي شعرت به كان فوق تصوراتي، الخوف الذي دمر روحي، منذ تلك اللحظة التي انقض فيها أبي على جسدي. هوى به. أمسكني من شعري وصار يلوح بي مثل مزقة في إعصار. تلك هي المرة الأولى التي يضربني فيها. لم يكن ضرباً، بل محاولة قتل. تخيلت دائماً أن أول تماس لي مع جسد أبي المخيف سيحصل عندما يلفني بين ذراعيه، ويسمح جبهتي مغنياً لي أغاني حفظها عن أمي. اعتقدت أن غياب أمي كفيل بأن يجعل منه بديلاً لها، ولكن التماس الأول كان نار كفه وهي تهوي على وجهي، وبصاقه الذي ملأ جسدي، مترافقا مع اللعن والركل. كنت أتطاير في الهواء، وهو يرفعني بيديه ثم يرميني على الأرض تاركاً لنفسه فرصة للراحة، ثم يعود ليعلو بي من جديد.

أرجوحته دوختني.

في الصباح وجدت نفسي في المستشفى، تحيط بوجهي الضمادات. ظهري أضلعي، كتفي، وكل ما في جسدي يوجعني. يدي اليمنى ملفوفة بجبس، تذكرت أن أبي عندما ضربني أمسكني منها، ولوح بي يميناً ويساراً.

الوجه تحيط بي: زوجة عمي، بناتها، عمي وأولاده.

فتحت عيني وواجهتني نظرات شزراء من كل صوب. زوجة أبي هي من تكلمت أولاً:

- ما هذه الفضيحة يا ربي؟

لم أفهم ما تعنيه وأغمضت عيني. تابعت تعنيفها والدموع في عينيها:

– أين كنت منتصف الليل يا شرموطة؟ لن يستطيع أبوك مواجهة انسان بعد الآن. إنه يحبس نفسه في غرفته.

صممت خالتي وهي تعض شفتيها وبدأت البكاء.

لم أكن أتصور العنف الذي سأتعرض له جراء مغامرتي الصبيابية تلك. هل يستحق سالم كل هذا؟ وهل فعلت ذلك من أجل سالم أم من أجلي؟ ازداد بكائي، وكل من حولي صار ينظر بغرابة إلى تلك الطريقة المؤلمة في البكاء. إحدى بنات عمي همست برقة:

– اتركوها تهدأ، وسنعرف فيما بعد من تلاقي ليلا.

صمتت ابنة عمي لحظة، وتابعت بكبرياء بعد أن رفعت رأسها نحو الأعلى:

– بعد أن نعرفه عليه أن يتزوجها.

راودني إحساس أنني اثنتان: نور طفلة السماء، ونور طفلة الأرض، ومن تبكي أمامهم هي نور طفلة السماء، أما نور طفلة الأرض فقد أدركت ما الذي يعنيه كلامهم: رجل وامرأة يحتميان بالليل. للبشر يعني الأمر شيطاناً متربصا للغواية، وهذا الشيطان هو العري والجسد المباح أمام الآخر. وبما أن الآخر رجل فلا بأس. لكن الأمر مختلف لفتاة لم تتجاوز الثامنة عشرة. جسد غض يزيح غطاء الليل عن محرم. لن يفكروا سوى بالفضيحة لامتداد جسد أمام جسد.

هل ينظر الرجل في عيني حبيبته ويضمها ثم يقبلها من جبينها فقط، عندما يوافيها منتصف الليل، بعيداً عن الناس؟ هل ذلك جل ما يفعله رجل بامرأة تأتيه ليلاً؟

الجواب صعب، لكنه بالنسبة للعائلة أبسط من ذلك. سمعة العائلة فوق أي كان، خاصة وأن القرية أفاقت ذلك الليل على أب يضرب ابنته حتى الموت.. بعد ضبطها خارج البيت قبل طلوع الفجر بقليل.

ما الذي تفعله فتاة، خارج بيتها، وفي وقت مثل ذاك، سوى الرذيلة؟

هل يجتمع الرجل والمرأة إلا والشيطان ثالثهما؟

الفضيحة تغوي بالمتابعة وإيجاد مادة لبضعة أيام من الثرثرة، يتسلى بها أهالي قريتنا الغارقون في السأم والنميمة. لقد فقدوا هويتهم، فلا هم فلاحون، ولا هم أهل مدينة، وتلك حال القرى الممتدة على هذا الشريط الساحلي. قرى فقدت خصوصيتها وضاع أولادها بين المدينة

والقرية. المغري في الأمر أكثر بالنسبة إلى أهالي قريتنا، هو أن الفضيحة تخص عائلة (النمر)، وهي فرصة سانحة للحط من كبرياء هذه العائلة التي طالما تعامل أفرادها كأمراء وأسياد يحق لهم ما لا يحق لسواهم، رغم أن أحوالهم لم تبق على ما كانت عليه، ما انفكوا يعتقدون أن من الطبيعي معاملة أهالي القرية كأجراء، باعتبارهم عملوا في أراضيهم وسكنوا في بيوتهم ذات زمن.

الفرصة منا سبة جداً، وأنا المادة الخصبة لتفريغ حقد طالما أحسوا به تجاه عنجية عائلتي.

ابنة هادي النمر في منتصف الليل خارج بيتها!!

مع من؟

ما الذي كانت تفعله؟

الفضيحة هي الصورة الوحيدة التي لاحت أمام عائلتي. جعلتهم يجتمعون بعد زمن طويل من القطيعة. سألت نفسي: لماذا لم نرهم عندما حلت الكارثة التي قلبت حياتنا رأساً على عقب؟ ولماذا ختفوا ونحن على وشك الموت جوعاً؟ ولماذا.. ولماذا.؟

أسئلة كثيرة خطرت على بالي خلال عودتي إلى القرية بسيارة أجرة صغيرة.

عائلتي من النوع الذي بخاف تلوث مرآته الناصعة البريق. خوف ليس من النوع الذي يربط ذوي القربى بعضهم ببعض، بل هو أشبه بمحاولة الحفاظ على آخر الأمجاد التي كانوا يفقدونها مجداً تلو الآخر.

لم يتفوه أبي بحرف لمدة طويلة. صار يتحاشى الخروج والاختلاط بأخوته، إلا أنهم لم يقبلوا أن تمضي الأمور كما أرادها هو. اجتمعوا مرات ومرات في بيتنا وناقشوا الأمر وحاولوا معرفة الشخص الذي لاقيته ليلاً، لكنهم كفوا عن تلك الاجتماعات عندما حاول عمي الأكبر المساس بما عده أبي محرماً عليه، إلا وهو الخوض في مسألة سوء تربيتي، وضرورة تزويجي.

في تلك الليلة هز صوته أركان البيت، ووقف بين أعمامي المجتمعين في بيتنا صارخاً:

- هذه قضية تخصني وحدي، ليذهب كل واحد منكم ويحل مشاكله اتركوني لحالي.

لم يسكت عمي الكبير، صاح وهو يخرج من بيتا طالباً من الجميع اللحاق به:

– أنت الوحيد المؤول عن لملمة هذه الفضيحة وإلا ستكون رجلاً بلا كرامة.

هل هذا ما أردته؟ الانتقام من أبي! الانتقام من كل ما يحيط بي، من الخراب الذي صادفته أينما توجهت، من سطوة أبي التي حولت حياتنا إلى تعاسة وأودت بحياة أمي؟

أجل أردت الانتقام من كل الأوامر التي رافقتني منذ الطفولة، من التنبيهات التي جعلتني أكثر عبودية للآخرين، وخسرت معها روحي وجسدي الذي لم يعد ملكاً لي، بل ملكاً لما يراه الناس ويعتقدونه، ويؤمنون به. كنت أشعر وأنا بين الناس أني لست أنا، وإنما كتلة مادية تمشي بأقدام الآخرين، تفكر بعقول الآخرين، وترى بعيونهم. أردت الانتقام لأصبح ما أنا عليه، لتصبح نفسي ذاتها.

دخل أبي إلى غرفته وأغلق الباب على نفسه.

صوت ارتطام الباب كان أشبه بزلزلة أرضية. زوجة أبي لم تستطع تحمل الموقف. اندفعت نحو غرفتي، وبدأت تصفعني وهي تولول:

– الله لا يوفقك.

أخي علي كان ينظر إلى خالتي بحقد وهي تضربني، ولكنه لم يحاول التدخل. كان المنظر غريباً عليه، فأمي لم تضربنا في يوم من الأيام، أما جدتي لأمي التي قضيت معظم أوقاتي معها، فقد علمتني دوماً، أن الإنسان خلق ليفرح فقط. أثناء الضرب تذكرت كلمات جدتي تلك. حدقت في عيني خالتي ولم يرمش لي جفن، ولولا صراخ أبي من غرفته، لما توقفت عن الضرب. تنفس جسدي الصعداء بعد أن خرجت من غرفتي.

– لماذا فعلت ذلك يا نور؟

لو ناداني أبي هكذا كما اعتاد وأنا صغيرة، لغرقت في حضنه وطلبت غفرانه، وشرحت له ما الذي أردته من مغامرتي الليلية. كنت سأبكي بين ذراعين وأقول له: كنت أكتشف كنزاً، وأحاول الغاربة، وأحاول أن ألفت انتباهك إلي.

عادت خالتي من غرفته واجمة، وطلبت مني ارتداء ثيابي على عجل. أدركت أن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد.

لماذا أرتدي ثيابي، وإلى أين نذهب وأنا ما زلت مريضة، ويدي المكسورة ما تزال معلقة في رقبتي؟

بدأ السجال، كالعادة، بين نور طفلة الأرض، ونور طفلة السماء. طفلة السماء تبكي بوجل وهي تتخيل العيون المحدقة بها، تعري جسدها، وتشعر بالذنب لأنها تسبب الألم لمن حولها. طفلة الأرض تنهرها بان ذلك من حقها، ألم تمنع من الحركة خارج البيت؟ وحرم عليها رؤية سالم، حرمت من أمها وجدتها، حرمت من الضوء والشمس، حرمت من صديقات المدرسة اللواتي لا يناسبنها اجتماعياً كما قال أبوها؟

طفلة السماء تخفي وجهها بكفيها، وهي تتخيل منظر أبيها الغاضب، وتشعر بالإشفاق على كل من حولها.

تطلب منهم مسامحتها على الآلام التي سببتها لهم.

* * *

الأصوات تعلو من الداخل.

صياح امرأة في حالة ولادة.

وقع أقدام مستعجلة.

ممرضة تروح وتجيء بسرعة، وبين الحين والآخر تلقي نظرة متفحصة على يدي الموضوعة في الجبس. تخرج خالتي من الغرفة وتطلب مني الدخول. ألحق بها وأنا منومة مغناطيسياً. غرفة الطبيب تتفتح أمامي كتابوت أزرق. أشم روائح دماء وأدوية فأحس بالدوار. يقترب الطبيب ويطلب مني خلع ثيابي، وسروالي الداخلي. لم أتحرك. بدوت مذهولة من طلبه. نظرت إلى خالتي متسائلة. اقتربت مني وبصوت خافت، مدت صوتها في إذني:

– اسمعي ما يقوله الطبيب.

انتفضت واجمة وانتظرت تفسيراً لما يحدث. وقف الطبيب أمام خالتي مستغرباً عدم استجابتي لطلبه. اقتربت من سرير جلدي قديم ثبتت على طرفيه قطعتان معدنيتان طويلتان. شعرت بإبر تنغرس في جسدي وصبار ينتصب في حلقي.

نزعت ملابسي. غطيت نصفي السفلي بغطاء أبيض. تمددت على السرير الجلدي كما أشار الطبيب. ما الذي سيقوم بفعله الآن، هل سأموت؟

أي لعنة حلت بي عندما خلقت أنثى؟

كنت اقترب من السقوط الأخير وأحاول الدخول في الغيبوبة. شد الطبيب جسدي نحو الأسفل بحركة قاسية. شهقت بعمق. صرخت طالبة النجدة من خالتي. اقتربت من السرير

وأمسكت يدي اللتين حاولتا إمساك الطبيب. بدأ الطبيب حيادياً تجاه ما يرى وكأنه غير موجود. تابع عمله بهدوء تام. أمسك فخذي اليمنى ودفعها نحو الأسفل، ثم ثبتها على القطعة المعدنية، وكذلك فعل الفخذ الأخرى. أحسست أن جسدي ينشطر وأني سأنتهي إلى العدم، بعد أن تذوب خلاياي دفعة واحدة وتنتهي في سلة القمامة الموضوعة أسفل السرير الجلدي، واليت تحتوي بقايا دماء وأوساخ أرحام.

طفلة السماء أطلقت صوتاً يشبه عواء الكلاب الشاردة. أما طفلة الأرض فأدركت ما يحدث. امتدت يد الطبيب واتجهت نحو أكثر المناطق حميمية في جسدي وروحي، إلى المحرم الذي رافقني منذ الطفولة ولم أجرؤ يوماً على اكتشافه. الآن ودون مقدمات يأتي غريب لاغتصاب حميميتي ببرودة. أردت أن أتبول، لم أستطع. طالعني وجه خالتي عابساً، وتذكرت أمي: لا تدعي أحداً يلمسك منها، سيغضب الرب منك. نهضت وأمسكت يد الطبيب ثانية، وأنا أصرخ في وجهه. صفعتني خالتي على وجهي وطلبت من الطبيب متابعة عمله. آلام حادة أسفل ظهري وبين فخذي، تلسعني بحرقة. رجلاي المتشنجتان تتخبطان وتحاولان التملص من حالة الانفراج المؤلم. يد الطبيب البلاستيكية فلقت روحي إلى نصفين. بدأت الأصابع تغتصبني. إنه الانتهاك الأول لروحي وحياتي الذي وضعني في زاوية ضيقة من العار والخجل من جسدي.

أن تكوني أنثى يعني أن تكوني غير موجودة، الأنوثة لا وجود لها في تعاليمنا يا نور، حتى السيدة فاطمة الزهراء، هي في الأصل مذكر واسمها فاطر، وهي تجسيد للذات الإلهية مثلها مثل الحسن والحسين ومريم العذراء، هذه هي التعاليم. الأنوثة المتجسدة على الأرض هي أرواح مذكرة عاقبها الله بمسخها إلى أنثى، وعندما تتحول الروح المذكرة إلى أنثى، فمن الصعب عليها العودة إلى الذكورة، هي فقط تستمر عبر تجلي كونها امرأة، وذلك أقصى ما تستطيع فعله. وإذا حدث وأذنبت هذه الروح فهي تتحول إلى حيوان، وربما إلى حشرة وربما إلى أشياء أكثر دقة لا تراها العين المجردة.

تتحول الأرواح إلى غبار يمشي مع الضوء للهروب من القسوة البشرية التي ترافق مولد أنثى.

تمنيت لو كنت حشرة دقيقة الصغر، لا صدر لها ولا فرج ولا شعر، ولا أرداف، أي شيء بعيد عن عالم الأنوثة كان كفيلاً لأكونه. هذه الأنوثة التي دمرت عفويتي، وأنا أسمع

أصوات خالتي ونسوة أعمامي وبناتهن المجتمعات حول السرير، بعد أن عدت إلى البيت، وهن يؤكدن لبعضهن أنني عذراء، ويتهامسن فيما بينهن عن فوات الأوان، وأن الوقت متأخر لقطع ألسنة الناس. يتضح السمع أكثر، أصوات أقدام خالتي تخرج من الصالون وتدخل الغرفة المجاورة ثم تعود ثانية. في يدها تقرير الطبيب الذي يثبت صحة ما تقول.

وضعت يدي في أذني وانزلقت في فراشي حتى لا أسمع ما يقال.

أردت إجبار نفسي على الدخول في الغيبوبة لأحلق بعيداً عن أوجاع فخذي التي تركت حاجزاً أمام جسدي.

بدأت أشعر أن كل ما علي فعله، منذ تلك اللحظة، هو تحويل ذلك الجسد غلى كتلة من الجليد.

* * *

منذ اليوم الذي رفضت أن أتفوه بحرف حول مغامرتي الليلية، امتنع أبي عن توجيه الحديث إلي. كنت أخاف على سالم الذي اختفى فجأة من حياتي وكأنه مجرد حلم.

طلب أبي من خالتي إبلاغي انه لا يريد رؤيتي. كنت أتحاشاه أثناء تحركاتي في البيت معتقدة أن الأمور ستتغير بعد مرور بعض الوقت. لن يسمح لي مجدداً بالخروج من البيت. عدت مجبرة إلى وحدتي.

عرفت أن انقطاعي عن المدرسة فقدان لفرصة الاتصال بالعالم الخارجي. حاولت البقاء بين كتبي وغرفتي الملونة بأزهار عباد الشمس. وجدت الفرصة مواتية للبحث في الكتب التي خبأتها أمي داخل سريري وهي تقوم بإعداد البيت بعد خروج أبي من السجن. كانت الكتب تعود في الأصل إلى خالي الذي توفي باكراً.

كنت أشم رائحة الطفولة وأنا أعيد ترتيب الكتب بعد إخراجها من مخبئها. كان خالي هو عالمي الأجمل والأكثر التصاقاً بروحي، ويكفيني أن أعيد ترتيب كتبه حتى أشعر بالاطمئنان. رائحة كتبه تعيدني إلى فردوس الطفولة المفقود، وإلى النزهات المسائية مع جدتي قرب ميناء المدينة. دخلت العوالم المجهولة التي لم أتخيلها يوماً. كنت أقرأ وابتعد عن كل ما يحيط بي. أنهي تنظيف البيت الذي يأخذ مني نصف نهار. أدخل بعدها إلى غرفتي وأحبس نفسي فيها. علاقتي بالكتب لم تكن علاقة قراءة فقط، بل إحساس بالحياة، وبأن قلباً صغيراً يتنفس بين الضلوع وأن بشراً ما زالوا على وجه الأرض. علاقتي بالكتاب كانت صلاة على

الدوام. عندما كانت جدتي تصطحبني إلى الكنيسة، كانت تفتخر بين صديقاتها بحفيدتها التي تحفظ الكثير من الشعر القديم وتجعلني أرددها على الدوام أمامهن، وتقضي ساعات طويلة، تضعني أمامها وتختار أكثر القصائد العربية قدماً وصعوبة، ثم تشرع بتحفيظي إياها. في نزهاتنا المسائية كانت تحمل إنجيلاً صغيراً معها، تجلسني قربها على مقعد مواجه للميناء وتبدأ بالقراءة. أما عمي الكبير، والد محمد، وأثناء زياراتنا الخاطفة إلى بيتهم في القرية، فقد كان يجعلني أجلس قربه وهو ينشد قصائد طويلة للمنتجب العاني، المتصوف العلوي الكبير، ويروي حكايات طويلة عن رحلة المكزون السنجاري، من العراق إلى البحر. تلك الرحلة التي غيرت مسار التاريخ، كما قال. يجعلني أردد أمامه جملة طويلة ما تزال ترن في ذاكرتي: الكتاب مفتاح المعرفة وأنت تنتمين إلى الإمام علي بن أبي طالب، احفظي هذا. ودائماً كان يرفق جملته هذه بتعليق: أمك صليبية، لا تنتمي إلينا، تذكري أنك ابنة أبيك. ثم يسرد قصصاً وحكايات من الكتاب الذي يحمله، فأشعر أن الكتاب هو الساحرة التي ستمد عصاها وتخلق كائنات غريبة.

في غمرة غرقي في الكتب، لم انتبه إلى الشحوب الذي غير شكلي من فتاة جميلة إلى فتاة بعيون باهتة ووجه أصفر وجسد نحيل، مرتجف وخجول. كنت أعبر بين أفراد عائلتي مثل كائن غير موجود وغير معني بما يحدث، وكأني سقطت من الفضاء وارتميت وحيدة ضمن جدران البيت. لا أرى أبي إلا نادراً، وإذا حدث والتقت عيوننا صدفة يتصرف وكأنه لا يرى أحداً أمامه. صرت أتحاشاه حتى لا أشعر بضآلتي أمامه. صرت أشبه سريري أو وسادتي أو حتى الأريكة القرمزية المحببة إلي. أشبه أي كائن إلى نور، التي كانت رجلاً ومسخت قبل الموت إلى نوع آخر، له علاقة بالجماد. أحياناً أكون كرسياً تجلس عليه فتاة شقراء، وأحياناً سريراً. أرض الغرفة أنا في بعض اللحظات. الغبار غير المرئي صرته أيضاً، روحي تتشظى إلى عشرات التحولات المقررة سلفاً قبل أن أتكون في رحم أمي. اسبح في البعيد، في السماء وأطير بملاءات زرقاء شفافة إلى الفضاء، إلى نهايات الكون.

كائنات ترتجف بين الزحام. الأمهات والجدات والأطفال، يروحون ويجيئون. كلهم يلونون تفاصيل غرفتي. الشاعر طاغور يأتيني قبل النوم بلحيته الطويلة، يغمرني بمفرداته المضيئة التي تتراقص أمامي. أخبئ رأسي تحت اللحاف فيغمرني دفء حزين. الكلمات تمسك بأطراف بعضها راقصة. أغفو ولحية العجوز تدغدغ خدي. لحية طاغور البيضاء

تجعلني أشعر أنه إله متربع على الغيمات، ليس الإله الذي يعرفه البشر، الإله المعاقب، والواعد بالجنة والنار هو الحكيم النهائي الذي يتابع بفضول حركة أطفاله البشر ويقضي الزمن حزيناً على قسوتهم في اللعب والمزاح.

في الصباح أصحو وابتسامة تغرق وجهي بالطمأنينة.

خوفي الكبير كان من دخول إنسان ما إلى عوالمي واكتشافها. أقفلت عليها وعلى طاغوري بوابات غرفتي ولذت بسكون طويل. حتى العزلة حرمت منها. لأن أبي وخالتي كانا يقتحمان غرفتي فجأة بين الحين والآخر ليتأكدا من عدم هروبي. ذات يوم اقتحم أبي باب غرفتي. وجدني جالسة مثل بوذا، وقد أغمضت عيني. لم أحرك ساكناً عند دخوله. مددت يدي ورفعتها نحوه، كنت أحملق إلى الأعلى في مغامرة جديدة لأدخل إلى روحي. أصيب بالدهشة. هل أحس بالقلق على ابنته الخجولة، التي بالكاد ترفع عينيها في وجهه؟ الابنة التي تصرفت فجأة ومن دون أي مقدمات على شكل فاضح، وانتهت على حافة الجنون؟ كان أبي مقتنعا على الدوام بأني مخلوق غريب ولا يمت للعالم بصلة، وأني أشبه في نحولي وشرودي الدائم وجه أمي عندما تعرف عليها وأحبها حتى الجنون. وقف بوجه عائلتها المسيحية وخالف أوامر لأبيه الإقطاعي الكبير، وتزوج منها. هرب بها إلى أوروبا. عاد بعد عدة أشهر وكنت في أحشائها.

رأى أبي نحولي الشديد وعدم شهيتي للأكل فطلب من خالتي اصطحابي معها في مشوار بحري إلى إحدى المقاهي المنتشرة على أرصفة المدينة. لم يكن بالخبر الجيد بالنسبة لها. بدأت تشعر بحظوة عند والدي، وصارت تملك مبررات كافية لمعاملتي بالطريقة التي تروق لها أمام الناس. ما تريده في البيت تفعله، وساندها أعمامي من مراء ظهر أبي بعد أن اتهموه بالتقصير في تربيتي وبضعفه أمامي.

طلب منها أبي اصطحابي إلى نزهة صباحية مع نساء أعمامي وبناتهم. قلب أبي بدأ يلين، وقد يسمح لي بالعودة إلى الحياة الطبيعية. من جانبي وجدت تلك النزهة مبرراً لإغاظتها بعد أن خطرت في ذهني فكرة ستزيدها عذاباً. فتحت خزانة أمي بالمفتاح الذي أحتفظ به كوديعة منها قبل موتها. هبت رائحتها وغطت روحي. اخترت أكثر فساتينها أناقة. لبسته وخرجت. أخي صرخ من الدهشة: ما الذي ترتدينه؟ أجبت بزهو: فستان أمي.

بدا مبهوتاً وهمس ناشجاً: لماذا؟

أحسست بالحاجة للضحك والرقص:

- أريد أمي معي في أول لحظة حرية بعد هذا السجن الطويل.

نظر أخي بغرابة ولم يفهم ما أعنيه. كنت أدور حول نفسي بالفستان وأفرد شعري الأشقر الطويل، وأنظر إلى وجهي في المرآة، وأهمس لنفسي "أشبه جان دارك". كان أخي واقفا ورائي، مبهوتا. التفت نحوه والفرح يغمرني: جان دارك القرن العشرين.

فتح الباب ودخلت خالتي. لم تتمالك نفسها، صرخت: هادي.. هادي.. كان نداؤها أشبه بهبوب العاصفة. أسرع أبي، وعندما دخل الغرفة نظر إلينا بغرابة.

وقع نظره علي، انتفض ولمع حزن في عينيه. فتح فمه، وبدا أنه سيسقط على الأرض. ابتسم بعد ثوان وخرج من الغرفة. كان تصرفه كافيا ليعلن رضاه عما فعلت. أخي علي أكثر انفعالا، بكى وهو يهمس لي: كأنك أمي. اقتربت خالتي مني وصرخت في أذني: شريرة.

إنها تغار من أمي وهي في قبرها، ومما زاد غيظها إعجاب بنات عمي بالفستان، والدهشة التي عبرت عنها زوجة عمي.

راحت خالتي تقرأ بعض الآيات القرآنية وهي تخفي دموعها.

أحسست بالضيق أثناء الطريق الذي اجتزناه محشورين في السيارة، والرغبة في التقيؤ تراودني. جلسنا قرب البحر مباشرة على كراسي ذات نتوءات حادة. بدأت نسوة أعمامي بالترحم على أمي التي ماتت وهي ما تزال شابة. لم أحتمل ما سمعت. صرخت فيهن فجأة:

- ماما طقت من العذاب..

نظر الجميع بتوجس وأرادوا أن يخفوا الانفجار. أجابت خالتي: لو كانت عايشة لماتت من فضايحك!

وقفت وحلمت كأس الماء ورميته في وجهها. خرجت من المقهى ولحقت بي خالتي وهي تولول. أمسكت يدي، نهرتها وانفلتت يدي منها. صفعتني. صرخت بينما نساء عائلتي يتابعن تدخين النراجيل في المقهى البحري الذي يتوسط المدينة. نظرن بشماتة.

ركضت أنا في اتجاه القرية.

لاح طيف جدتي لأمي وهي تمسك بيدي في إحدى المساءات، فبكيت.

* * *

صار أبي أكثر تسامحا معي.

غرقت أكثر بين كتبي ورفضت الخروج من البيت. أصبح حضور الشيخ الأبـيض، طاغور، كثيفا، كان يمشي بهدوء، وعلى رؤوس أصابعه وهو ينشدني الأشعار ويحدثني عن الجمال والحكمة اللذين يجعلان العالم من حولنا فرصة ممكنة للبقاء، عنـدما يبـدأ النعـاس يغلبني، يباغتني بجمل عن الحب والطيران في ملكوت الروح، كان من الصعب علي الانفكاك من سحره، حتى في مجيء الصباح الذي يغيب معه، كنت أحفظ أشعاره وأنشـدها بصـوت عال. بقيت فترة طويلة أسيرة ذلك العالم، حتى اليوم الذي جاء إلي باكيا وطلب مني أن أدعه يسكن معي. وافقت مباشرة وبدأت محاورتنا اليومية ونقاشاتنا الحادة. فاتني مع مرور الوقـت أني لا أكلم أحدا، آكل وحيدة ولا أبرح غرفتي مطلقا. تحاشيت النظر إلى النافذة وخلال فترة قصيرة لم يبق أمامي من الكتب سوى القليل، لأفيق ذات صباح فأرى الشـيخ ينـام قربـي. صرخت: طاغور، أفق.

لم يجب، كان ممدداً بلا حراك، لحيته الطويلة هامدة على السرير.

صرخت وأنا أحاول تحريكه. ضربته على صدره ووجهه. لم يتحرك. إنني أفقد آخر الأحباء.

إنهم يهربون الواحد تلو الآخر.

عاودت صراخي وأنا أضرب جسد الشيخ. اجتمع أبي وأخي وخالتي. أمسـكوا بـي وحاولوا تهدئتي. جاهدت أن اشرح ما حدث، لكن الماء الذي اندلق فجأة في وجهي لم يدع لي فرصة لتوضيح أي شيء.

صرخ أبي: من الذي مات؟

نظرت إلى السرير الفارغ.. ولذت بصمتي.

- من مات؟ هل جننت؟

أجبت ببرود: الشيخ.

- أي شيخ؟

استغرب أبي، وأشرت إلى سريري.

- لا يوجد أحد.

عدت إلى صمتي. جسدي بدأ ينزف ويتحول إلى ذرات صغيرة من مـواد هلاميـة غريبة تخرج من الكتفين والعينين. أحاول التركيز في المكان الذي تمدد فيه الشيخ، فلا أجـد

سوى الفراغ. من المؤكد أن أهلي صاروا على يقين تام أني مجنونة، لأني عندما أفقت على ارتعاشات محمومة في جسدي، وجدت الجميع من حولي باكياً، أردت التنفس وشرع المكان يختنق. أمسكت يد أخي وهمست: أريد الخروج.

دخل رجل كبير السن ذو ملامح هادئة، يرتدي جلباباً طويلاً وفي عينيه ابتسامة طمأنينة غريبة. شعرت أنني أعرفه، لكني لم أستطع تحديد هويته. حاول ملاطفتي وسألني عن أحوالي.

- نور، الشيخ أبو جعفر يريد أن يكلمك.

قالت خالتي وهي تقبل يد الشيخ. دخل أبي وجلس قرب خالتي على الأريكة القرمزية. شممت رائحة أمي..

حاول الشيخ أبو جعفر معرفة ما يحدث معي وما أراه، وكيف يأتي الشيخ إلي، وكيف مات، ومن هو طاغور، لكني لم أجبه، وبقيت ساكنة، متجمدة.

صرخت بغتة: اغتصبوني.

قام أبي من مكانه، وحملقت خالتي في وجهي.

رد الشيخ بهدوء: من يا بنتي؟

تعالى بكائي ومددت يدي بين فخذي وشددت بقوة: هم.

أشرت إلى الأريكة وسط ذهول الشيخ.

- من هم؟ سألني.

اتسعت حدقتا خالتي وانتظرت أن أنهي جملتي لتبدأ الولولة. وا تفوهت به أصابها بالبكم:

- خالتي والطبيب..و..و..

بعد ذلك الحادث، طلب الشيخ أبو جعفر من أبي أن يدعني أتصرف بحرية. أكد لهم أني شخصية غير متوازنة وقد أفقد عقلي لحساسيتي المفرطة، ومن الضروري التوجه بي إلى مقام الأربعين وذبح عجل نذراً للمقام بغية شفائي. اعترضت خالتي، إلا أن أبي اشترى العجل في اليوم التالي وأظهر حالة حب شديدة تجاهي لم تخفها عيناه وهما تفيضان بالدموع أثناء نوبات شرودي وهذياني. إنه يحاول التكفير عن ذنبه فيما فعله بنا وبأمي، ولم أستطع رغم

تسامحه معي، وسماحه لي بالخروج من البيت وإكمال دراستي، أن أغفر له. خالتي اشترطت أن أدرس في البيت، وأقنعت أبي بذلك. كالعادة لم أعترض.

سالم لم يحاول الاتصال بي طوال الفترة الماضية. قررت أن أواجهه بضعفه وجبنه عندما أراه. ألغيت فكرة الاتصال به. أحسست برائحة احتراق بين أضلعي وفعل خيانة، وكعادتي في تضخيم الأمور رسمت صورة لنفسي بعيدة عن أي مخلوق. ليس بإمكان رجل أن يخترق حياتي ثانية، هكذا فكرت. ولكن ذلك لم يكن صحيحاً، لأني ما أن سمعت صوت سالم على الهاتف حتى تدفق الدم في أعضائي. هبطت إلى وديان لانهائية العمق. ارتجفت ولم يخرج الكلام من شفتي. أعاد إلي السلام مرة أخرى. انتبهت إلي تحليقي الغريب في أعماق تلك الوديان. بالكاد خرج صوتي. قال إنه خائف علي من تصرفاتي غير الحكيمة، وما يمكن فعله الآن هو الامتثال لما يقوله أبي. أضاف قبل أن يغيب صوته: حاولي الدراسة في البيت جيداً، ثم أقفل سماعة الهاتف. اختنقت النيران في داخلي وكرهته مرة أخرى. يا لجبنه، ألا يتجاسر قليلاً، ألا يفكر بما أعانيه؟ ألا يعنيه ذلك الحب الأسطوري الذي انتشله من الرتابة كما قال ذات يوم؟! لو كنت رجلاً لتصرفت بطريقة مغايرة. كانت تلك لحظة الضياع الأول بالنسبة لأنوثتي ورغبتي في التشبه بعالم الرجال لأغدو أكثر حرية.

نهضت من مكاني، بصقت على الأرض ولعنت نور طفلة السماء. دخلت إلى غرفتي، وجه خالتي الشاحب يحملق في بغرابة. تجاهلتها، حاولت تخطيها، لكنها أمسكت بساعدي. أحسست أن يدي ستنفصل عن جسدي. كدت أجهش بالبكاء. صوت سالم المرتجف ما يزال يطن في أذني. نظرت بتحد حاقد في عينيها. ناولتني كتاباً حملته بيدها الأخرى، وصرخت:

- ما الذي تقرأينه؟
- تعرفين القراءة؟
- طبعا أعرف القراءة وإلاكيف قرأت هذا الانحلال؟

انتبهت لعنوان الكتاب كان لكولن ولسون (إله المتاهة).

أحد الكتب التي نبشتها من أغراض خالي.

ضحكت وأدركت سبب غضبها. تملصت منها وغرقت في سريري. ظلت تسب وتشتم وتلعن اليوم الذي جمعني معها في بيت واحد. مساء ذلك اليوم، ناداني والدي، بصوت الأجش

الغاضب. أسرعت إليه والخوف من زلزلة صوته يخنق الهواء في حنجرتي، وأخذت دماء غزيرة تتدفق فجأة من أوردة رقبتي. دخلت غرفة الجلوس، وجدته يمسك الكتاب ويضع النظارات على عينيه. فكرت بأني لم أره يضع هذه النظارات منذ زمن، وتذكرت أيام الطفولة عندما كان يغرق لساعات بين كتبه، قبل أن يقترب من تحوله النهائي إلى حياته الحالية، وقبل أن ينسى السبب الذي حمله يوماً ما إلى الدفاع عن نفسه وجبه أمام سطوة عائلته. دعاني للاقتراب منه، امتثلت لأوامره، تكلم بجدية استغربتها:

- هل تعرفين متى قرأت مثل هذه الكتب؟

لم أجب، لأني خف أن تخذلني نور طفلة الأرض وتصرخ في وجهه. مواعظه تواصلت دقائق عن الأخطار التي تنتج عن مثل هذه الكتب التي تساهم في الانحلال الخلقي، وتحول مجتمعاتنا المحافظة والأصيلة إلى مجتمعات لا هوية لها. صوتي لم يطاوعني كما يفعل مراراً في حضرة أبي. انتظرت أن يضربني ويحرمني ثانية من متابعة الدراسة، أو يعود لخنق أنفاسي داخل جدران أربعة، لكن ما حدث أغرقني بالصمت تجاهه. صرخ في وجهي وهددني بعقاب عسير إن عدت لقراءة مثل هذه الكتب، خاصة أني بنت ومن المعيب جداً أن التفت إلى هذه التفصيلات الإباحية عن العلاقة بين الرجل والمرأة، وهو لن يمانع عندما أكبر ويصير لي بيت وزوج أن أقرأ ما يحلو لي.

حاولت أن أشرح له أن هذا الكتاب يخص خالي وأني لم أتعمد قراءته، لكني لم أستطع التفوه بحرف واحد، احمرت أذناي وغرقت في الخجل وأنا أتخيل لم أن أبي قد عرف ما قرأته وصارت الصور الباقية في مخيلتي تتداعى، أغمضت عيني وذهبت إلى غرفتي وسط وعيد أبي.

* * *

في الصباح اليوم التالي عاقبني أبي على طريقته، وجدت الكتب مجمعة فوق بعضها بشكل هرمي في باحة البيت.

أبي وخالتي يرشون فوقها الكاز ويلقون بين الفينة والأخرى مزيداً من الكتب.

وقفت مذهولة. رآني أبي وحدق في عيني. لم أصرخ أو أبكي، ولكني رميت بنفسي فوق كومة الكتب. هي لحظة غريبة أردت فيها الموت. غمرت جسدي بالنيران والأوراق ورائحة الكاز. أردت التعبير بطريقتي عما أحسه ولا أستطيع التعبير عنه ببساطة أمام

الآخرين. هذه الكتب آخر ما تبقى لي من أمجاد عائلة أمي التي شعرت أن أهم ما سأسعى إليه في حياتي المقبلة هو التمسك بكبرياء والمحافظة عليه. لم يكن ذلك المجد عادياً، كان تاريخاً طويلاً من الهجرات والارتحالات المؤلمة لحيوات بشر ظلوا، طوال مئات السنين يحافظون على هويتهم وانتمائهم. هو جسدي فوق النيران، ودخل الرماد المتطاير من ألسنة النيران في عيني. خالتي وهي ترش الكاز فوق الكتب، أصابت شعري وبطني، وبدأت الاحتراق. ندت عن أبي صرخة فجيعة: نور.. نور. رمى نفسه ورائي وانتزعني من قلب الهرم، لكن النيران بدأت تأكل ثيابي وتمد مخالبها الحمراء إلى جسدي. انتهت من شعري، شممت رائحة احتراق لحم، وخطر في بالي لحظتها الموت من أجل فكرة نبيلة. علي أن أكون أقوى من الألم. شفتاي تنزان الدماء، أضغطهما حتى لا يسمع أحد صراخي. كان الألم أكبر مني، وبدأت أفقد وعيي. أخذني الألم معه ولم يقبل بالعودة بي كما كنت سابقاً. نور طفلة السماء ونور طفلة الأرض، رجع الألم بنور ثالثة كانت دائماً موجودة مع الاثنتين، نور الغريبة مع طفلة الأرض ونور الغريبة مع طفلة السماء. كيف وفقت نور الغريبة بين الاثنتين، لا أعرف، الألم وحده السر ودفنه إلى الأبد.

لم انتبه لوجع الحروق أثناء وجودي هناك فوق سريري الأبيض.

عاودتني الكوابيس التي لم تفارقني أبداً، كانت أصابع متوحشة تغتصبني وكتب محترقة تكبر وتتعملق وتفترسني. والأكثر إيلاما كان وجه خالي وهو يبكي. رأسه يحمل نفس التعابير التي رحل بها، لكني كنت أرى جسده كطفل رضيع، يحاول الحبو اتجاهي. أغرق في أصابع الوحش، ويضيع هو في الحريق.

الذين جاؤوا لزيارتي في المستشفى كانوا يلقون على جسدي نظرات غريبة، لم أستطع تفسيرها.

فسرت خالتي ما حدث للعائلة، وهم فاغرو الأفواه وغير مصدقين ما ترويه. كانت ترسل نظرات رثاء وذهول، وعلى عكس ما تهيأ لي، دافعت عني بشراسة، وعندما تسنى للبعض أن يعزو سبب الحروق إلى رغبتي في الموت للتخلص من خطيئتي، كانت تصرخ:

– أنتم جهلة، إنها غريبة الأطوار، لقد ألقت بنفسها في النار لأن هادي أحرق الكتب.

أحسست أن خالتي بدأت تشفق علي.

يصمت الحاضرون معبرين عن عدم تصديقهم، فتعاود المحاولة:

– صدقوني.. إنها لا تتكلم أبدا، ولا تعبر عن موقفها، ولكنها فجأة تتصرف كالمجانين. تصمت قليلا ثم تتابع وهي تتنهد:

– علينا أن نوفي بالنذر لمقام الأربعين، ربما كان عدم الوفاء به هو سبب ما يحدث. في المرة السابقة قالت إن هناك شيخا يزورها في غرفتها، هذا الشيخ يطالب بنذره، وهادي اشترى العجل، وحتى الآن لم يذهب إلى المقام.

تستهجن النسوة عدم الوفاء بالنذر ونظراتهن تغزوني بالمسبة والشماتة. إحداهن همست لرفيقتها وكان صوتها عاليا بما يكفي لأسمعه: هذه البنت ملعونة ومغضوبة، الله وحده يعلم ما الذي فعلته في جيلها الماضي حتى يحدث لها ما يحدث. والله وحده يعلم إن كانت ستبقى على هيئتها في حياتها القادمة.

تصمت المرأة الثانية، وتكتفي بهز رأسها دليل الموافقة.

تخيلت أني سأتحول في جيلي القادم إلى أفعى ملساء، تزحف بهدوء بين الحشائش البرية في غابة جبلية، أردت أن ألقي ما في جوفي من فرح لتحولاتي القادمة. أي تحول كان كفيلاً لأحبه ما دام سيبعدني عن ضرورة الاختلاط بالناس وسماعهم.

بعد رحيل أمي وجدتي لم يعد لدي سوى طاغوري الحبيب.

* * *

بدأت اعتقد أني مجنونة فعلا، وأعجبت بجنوني.

لن أحاول تفسير ما حدث لأني أعرف أن غضباً أكبر مني خرج وربما ما يزال يخرج. اختناق عبر عن نفسه بالجنون. فكرت، وابتسمت طويلاً لذلك. كنت أضحك دائماً بصوت عالٍ وأنا أجلس وحيدة في غرفتي. كانت خالتي تنظر إلي والدموع محبوسة في عينيها، وعلى الدوام تسألني إن كنت في حاجة إلى شيء ما. بدأت تعاملني كمريضة حقيقية، وكفت عن التعامل معي كابنة مدللة لزوجها.

ذات يوم دخل أبي الغرفة ورأى الدموع المعتادة في عيني زوجته، والابتسامة الواسعة على وجهي. أصيب بالذهول، وتمتم بكلمات غير مفهومة. اندفعت خالتي نحوه وأمسكت يديه بتوسل:

– لازم تاخدها على المزار هادي.. عجل قبل ما توقع الفاس بالراس؟

لم يجبها والدي. كان في حالة يرثى لها، وكنت أعوم وحدي مع سعادتي، أو على الأقل أوهم الآخرين بسعادتي. اسأل خالتي بين وقت وآخر عما حل بباقي الكتب، فتتجاهل سؤالي وتنظر إلي بريبة. لن يستطيع أبي أو حتى خالتي إدراك ما عنته تلك الكتب لي. هي ملاذي، صلاة للتقرب إلى الله، رسول للعبور نحو الموت. نفاد إلى اتساع الكون عبر كلمات محروقة. شريط من الفراغ اللامتناهي في جسد صبية لا تتقن إلا الاختباء في عوالمها الداخلية والدفاع عنها بالشر. شر تتقنه بمهارة وصناعة فائقة، تنسجه في روحها وتخرب لحظات عمرها، في اندفاع نحو تطرف لم تفهم معناه.

كنت نائمة..

خالتي وأبي يهمسان فوق رأسي:

- مقام الأربعين يا نور يشفي الروح. الله يكسبنا رضاك يا شيخ بو علي أحمد. ما ترجعنا خايبين..بجاه..وليك..

تدعو خالتي كل يوم وهي تمسك بي لأتمشى قليلاً، بعد أن نصحني الطبيب من خلال زياراته المتكررة بالمشي والتحرك قليلاً. جسدي يؤلمني. لم أكن بعد قد نظرت إلى وجهي في المرآة، حتى أني لم أفكر كثيراً بذلك، لكن صرخة الفزع التي ندت عن أخي، وأنا أشمر عن قميص نومي حتى لا يلتصق بالحروق، تلك الصرخة حرضت في الرغبة في رؤية وجهي. طلبت من خالتي مرافقتي إلى الغرفة الواسعة التي تحتوي على خزانة عتيقة بمرآة طولانية. ساعدتني، وأخذتني من يدي. لم يفصلني عن المرآة سوى خطوة، لن أكون أبشع من الميدوزا التي تحول كل من ينظر إليها حجراً، ألا أسبب الأذى لمن حولي دوماً؟ إنني أشبهها. أحول كل ما يحيط بي إلى لعنات.

نظرت في المرآة ولم أتعرف إلى نفسي. فتاة شبه صلعاء بوجه أحمر وعيون ذابلة بلا أية رمشة فيها. عروق يابسة تتوزع على رقبتي كلحاء شجر يابس. أين الفتاة التي كنتها، ما الذي بقى لي مني؟ لو تراني أمي ستموت للمرة الثانية. إنني أتحول إلى كائنة أخرى، لا علاقة لها بنور. كائنة بشعة، ومعيبة.

طلبت من خالتي الخروج وتركي وحدي بضع دقائق. رفعت قميصي قليلاً ثم تعريت. حتى جسدي أزرق، فأصبحت أشبه الجنيات الشريرات في حكايات ألف ليلة وليلة. الإصابة كانت أسفل بطني تماماً، فوق مثلث العانة. تلمستها بأصابعي وكان المنظر بشعاً. صرخت من

الألم وأنا أتحسس أثر الحرق. هويت على الأرض في اللحظة التي دخلت خالتي الغرفة. ألبستني ثيابي بهدوء. ربتت على كتفي. استغربت حنانها المفاجئ. تحولات خالتي الغريبة كانت نوعاً من الإحساس بالشفقة بعد أن أيقنت بأني مسكونة بروح تعذبني، ويجب عليها من الآن فصاعداً الاهتمام بي كما يقتضي واجبها كسيدة للبيت. ضحكت بصوت عال وأنا أقترب منها: لن يفكر أي رجل بالاقتراب مني يا خالتي، وستعيشون في سلام لأن الشرف الكبير لن يمس بسوء. المبرر لفقدان الشرف ليس موجوداً، ولم أعد بنتاً، صرت أشبه الشياطين. انظري، وأشرت إلى أسفل بطني وأنا أرفع ثوبي. ضحكت بعدائية وذهبت إلى غرفتي. بكت خالتي طويلاً وأيقنت أني فقدت عقلي تماماً.

* * *

تناهشتني الأفكار الغريبة وأنا أحاول النوم. سمعت صوت العجل الذي سيذبح غداً على شرفي..!! وربما فداءً لروحي، لا أدري..

عندما دخلت في غيهب النوم، رأيت نفسي عجلاً أذبح من الوريد إلى الوريد، ثم رأيت العجل رجلاً أسمر يمشي على رجلين ويدخن تبغاً بلذة. وكنت أطير محاولة الهروب منه، تمكن مني، وحمل رأسي ورمى به في وادٍ سحيق واغتصب جثتي ببرود. الوادي الواسع كان محاطاً بالجبال، وفوق إحدى القمم جلس الرب يتابع الحماقات الصغيرة للكائنات المتوحشة فوق الأرض، الرب يلوح بيده لأتبعة، بينما جسدي يتمزق تحت العجل الأسمر. وجه أمي يبكي إلى يسار الله، جدتي تطير في السماء على كرسيها وتدخن البايب، تراقبني بحيادية، ثم تغيب وراء الرب.

في الصباح اتجهنا إلى مقام الأربعين.

أبي وأعمامي ونساؤهم وأولادهم. أخي وخالتي والجميع ينظر بغرابة ويتعامل معي كشيء يجب الابتعاد عنه. تجاهلتهم ببساطة لأني لم أشعر يوماً بوجودهم في حياة أسرتنا. مجرد أشكال خارجية تتلون أما العائلات الأخرى، تتباهى بتماسك العائلة وعراقتها وأصالتها، ولكن لم يكن ليخفى على أحد الكره الذي يكنه كل منهم للآخر والغيرة التي تنشب فيما بينهم. هذه هي الفرصة المناسبة لهم، أبي، رجل العائلة القوي الذي لم يطأطئ رأسه لهم،رغم ما آلت إليه ظروفه، أصبح تحت رحمتهم. هي فرصة لوضع النار في عينيه وإحراق كبريائه الصلف، لم ينسوا حتى الآن، خاصة الكبار منهم، ورغم المناصب التي تبوأها، والمكانة

الاجتماعية الرفيعة التي كانت له على الدوام، أنه خرق قوانين العائلة والطائفة وتزوج أمي، ابنة أكثر العائلات المسيحية تشدداً في اللاذقية. وكون لنفسه معها عائلة خاصة به، لم يكن أبي يوافق على الطريقة التي يفكر بها أعمامي وكان مقتنعاً على الدوام بأن كل ما يخرج من دماغه فهو الصحيح المطلق وعلى الجميع أن يتقبلوا ذلك، كان هذا قبل حادثة السجن، لكن الأمور اختلفت، ومراسه الشديد صار أكثر ليونة فيما بعد. تصرف أعمامي ونحن ننتشر حول الأشجار العملاقة وكأنهم مسؤولون عن أبي. لم يدعوا له فرصة الحركة.

جاء الشيخ، والتف أعمامي حوله. بدأوا التمتمة على السكين التي سيذبح العجل بها. بطحوا العجل أرضاً فالتمعت عيناه السوداوان تحت كثافة الأشجار الخضراء. أغمضت عيني، والسكين تقترب من الجلد الأسود، أحسست أنني أذبح وأن جلدي يتشقق، تحت سكين الشيخ. أقربائي التفوا حول الذبيحة، يتقاسمون الحصص، كأنهم لم يأتوا هنا بغية شفائي، وكأن الرهبة والخوف من عتق المكان لا تعني شيئاً. الأمر بالنسبة لهم أشبه بنزهة. كنا غرباء، أنا وأبي وخالتي وأخي. طلب مني عمي الكبير الدخول غلى المزار. دخلت وراءه بذهول. لم أخف يوماً من دخول أماكن الدين والعبادة. كنت مأخوذة بالحالة فقط.

العتبة ذات ارتفاع بسيط والأغطية على القبر، خضراء داكنة بدرجات متفاوتة. القبة البيضاء المنتهية بقنديل قديم يتدلى وسط المكان بسكون. رائحة البخور المتصاعد من أواني الفخار الموزعة على جنبات القبر تدخل في رئتي، ولوهلة شعرت أنني لا أنتمي إلى المكان. أنا من زمان بدائي وروحي التي تسكن جسدي الحالي ما هي إلا نتفة غيم مارقة من زمن سابق، هاربة من تحولها الأخير نحو قاع المحيطات.

انحنيت على الضريح، وبكيت على رأس الشيخ الميت. خيل إلي فجأة أنه طاغور، عجوزي الذي فقدته ذات يوم واختفى من سريري دون وداع. هل سيسمعني؟ تناثرت روحي وأنا أدور وراء عمي وأقبل الضريح. داخلني إحساس عارم بالحزن والفراغ، إنني أقبل الحجر، وكان الله في قلبي وحيداً يبكي. تذكرت تلك الاجتماعات السرية. اعتبرتها سرية لأنها على الدوام تخص الرجال وهم يجتمعون في كل عيد. الأعياد الخاصة بطائفتي تتشابه مع أعياد قديمة أقدم من جميع الديانات التي مارسها البشر منذ أن وجدوا. أعياد ماضية لها علاقة بسيرة الإمام علي، مثل عيد الفراش الذي سمي بذلك لأن علياً نام يومها في فراش الرسول. وأعياد فارسية كعيد الرابع. كنت أتلصص على اجتماعاتهم السرية تلك، وأجد متعة فائقة في

مراقبة ما يقومون به من حركات، تلك الحركات الآسرة التي تدل على ترابطهم الروحي العميق فيما بينهم، وعلى رغبتهم في الحفاظ على وجودهم مجتمعين كالقلب الواحد.

عادة ما كانوا يجتمعون على الأرض، ويمسكون بأيدي بعضهم. بين الركعة والركعة يقبل كل منهم يدي رفيقه على الجبهتين. أراهم يشعلون البخور ويتمتعون، وكان أبي في بداية الصلاة يمنح الزكاة للشيخ، وذلك تيمناً بالإمام الذي كان، كما قال الرواة، يصلي في يوم من الأيام، ووضعه جانباً لكي يأخذه الشحاذ، فنزلت الآية القرآنية "... الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون" وتم تفسيرها على أن الزكاة تأتي بعد إقامة الصلاة كمباشرة. دأبت على مراقبتهم فور الانتهاء، أبي المتوهج بالتمائم بين كبار المشايخ، اعتداده بنفسه وهو يجمع في بيته الله واللحوم، وكبار مشايخ المنطقة. كانت متعتي الوحيدة أثناء ما كانوا يصطحبونني معهم، هي انتظار تلك الاجتماعات السرية ومحاولة معرفتها عن كثب. ضبطتني أمي في إحدى المرات متلبسة بالجرم، وكانت كارثة بالنسبة لعماتي اللواتي طلبن منها مراقبتي جيداً، وإلا فإن عقابي سيكون عسيراً. سأصاب حتماً بالطرش والبكم، لأن هذه العوالم تخص الرجال فقط. وهي من المحرمات الكبرى على المرأة، وأي محاولة لخرقها ستجلب الغضب واللعنة.

قضت أمي ليلة طويلة وهي تدعو للمسيح أن لا يؤذيني، عندما سمعتها إحدى عماتي صرخت بخوف:

– اطلبي ذلك من الإمام علي، انسي مسيحك هذا، واتبعي دين زوجك.

ردت أمي بهدوء:

– إن الله واحد في السماء.

كنت ما أزال في بداية مراهقتي، وكان من الصعب علي فهم مايحدث. طلبت من أمي تفسيراً لما تقوله عماتي، أجابت بنفس الهدوء الذي أجابت به عماتي: المرأة كائن قاصر، خلقها الله من ضلع الرجل.

حملقت مندهشة وأنا أتخيل الرجل يلد امرأة من ضلعه، تابعت: يعين ذلك يا حبيبتي أن المرأة تبقى دوماً أقل من الرجل، لأن الله خلقها هكذا. ومن أجل أن تستمر الحياة، يجب أن يكون هناك قائد واحد للسفينة حتى تسير باتجاه صحيح نحو الهدف.

لم أفهم معنى ما قالته.. لكنني من أعماقي قررت، منذ تلك اللحظة، معرفة ما يجري في عوالم الرجال السرية تلك، وأعدت عملية التلصص مرات ومرات. سمعت أشياء كثيرة. مازلت أسمع بأذني مثل كل النسا، وما زلت أنطق بلساني.

في آخر دورة لي داخل المزار، بدأت أشعر بالدوار.

دخلت خالتي وبكت وهي تراني أترنح فوق الضريح.

خرجت شبه مغمى علي، واندفع الجميع نحوي وكلهم اعتقاد أن ذلك بفعل الرهبة والخشوع. ومما زاد الأمر سوءاً، رائحة الشواء، واللحم المسلوق والدم المتناثر أسفل الأشجار العملاقة، والزنخة المقززة التي تفوح من أمعاء العجل. طلبت منهم أن يتركوني وحيدة. امتثلوا لرغبتي وجاءت خالتي بـ (خلعة): قطعة قماش خضراء اللون، مباركة ومقدسة من المزار، جعلتها على شكل فتائل وربطت حول عنقي واحدة وفي معصمي أخرى، ثم جاءت بقليل من البخور وتركته قربي. قبلتني من جبيني، ثم همست: الله يشفيك. أحسستها دافئة على غير العادة، ربما أن رهبة المكان تجعل الروح تسمو على دونية الإنسان وتوهمه أنه كائن طيب فيرضى عن ذاته، ثم لا يلبث أن يعود لنشر حقيقته ثانية.

ابتعدت خالتي ووجدت نفسي وجهاً لوجه أمام عملاق كبير، هائل الاتساع، تلك الجبال المستكينة منذ آلاف السنين على صدر البحر، التي تعج بمئات المقامات النورانية، وفي كل مقام من هذه المقامات لغة للرب. يترك نوره فيها ويهرب نحو حيوات كائنات غريبة وغامضة لن نعرفها قط. البشر الذين خافوا هذه الأماكن تركوها بكراً، ولم يتدخلوا في تكوينها، فبقيت مع ربها في هناء واتساع لا حدود له. كنت في غمرة الاتساع أبحث عن سبب وجودي تحت مظلة إلهية. بكيت في حضن الله ولمته كثيراً على الشر الذي لم يتغلب عليه مطلقاً عندما حاول إقناعي بأن التجربة هي المعرفة، وأن ما يفعله هو اختبار الحب في الإنسان. لم أصدقه أبداً ولن أصدقه بعد ذلك، لأنني عندما حاولت أن أسند رأسي على كتفه هرب بملاءته البيضاء واعتبر حزني.. فعلاً شيطانياً، ولم يعد ذلك الجد العجوز الذي يسكن الغيوم كما صورته جدتي. لقد تخاصمت مع روح لو مشيت وراءها لأعطتني الاطمئنان الموهوم بالخلود بعد الموت. ولسكنت ارتعاشات رفضي لفناء كنت أراه أينما فتحت عيني، لكني لم أفعل لضعفها في أضلعي. كرهت الضعفاء، وكانت تلك الروح من الضعف بحيث أنني رميتها.

انتهى وقت الطعام، وانطفأ رماد الشواء، وغنى الجميع ورقصوا تحت امتداد الفروع العملاقة للأشجار المعمرة. وراء المقام الأبيض، نمت طويلاً بين الشجيرات الخضـــراء، ذات النتوءات الحادة.

أفقت على صراخهم وهم يبحثون عني، وكلهم ظن أني هربت منهم. وجدت خـــالتي تنوح وتولول صائحة:

– لقد اختفت، أخذ روحا الشيخ بوعلي، صعدت نحو السماء، أنا أعرف..

كنت أسمعهم ولكني مشوشة، وبالكاد خرج النداء مني، أعدته مـــرة أخـــرى. تحلـــق الجميع حولي، وأنا متكورة كجنين لا يستطيع الحراك. أصيبوا بالذهول عندما وجدوني داخل نبات لاشوك، متكورة بين الخضرة، ولم يعنني من كل ذلك الضجيج سوى رائحة البـــراري والغبار الذي عفر وجهي.

* * *

بات من الضروري أن أعود إلى حياتي الطبيعية، وأهتم بما ســـأفعله بشـــأن إكمـــال دراستي. خرجت من البيت بتشجيع كبير من ابي وخالتي. لحظة وطئت قدمي الطريق وحيدة، خفت لبرهة وأنا أحدق في الفضاء الخارجي. هل أستطيع المشي كباقي الناس؟ اجتزت البيوت المخصصة لعائلتنا، والتي كانت تصطف حول نفسها مشكلة دائرة كبيرة، تتوسطها شجرة تين عملاقة، نصفها أخض والنصف الثاني يابس، تتوزع الجذوع اليابسة لتصل إلى حدود الطابق الثاني لبيت عمي. دخلت في حارة أخرى تؤدي إلى طريق المدينة. فوجئـــت بالبشـــر كيـــف ينظرون إلي، وهم أشبه بدمى بلهاء وعيون سميكة. هل أبدو غريبة إلى هذا الحـــد؟ ســـألت نفسي. لم أعرف حينها أن الخوف الكامن في عيونهم لم يكن مني، وإنما هو الاشمئزاز مـــن الجسد أو الفضيحة المتعارف عليها على مر الدهر.

العيون تحدق في جسدي، ترصد مشيتي، صدري، بطني، فخذي.

لم أعرف أنني مباحة لنظراتهم. بدأت أتعثر في مشيتي. أحسست أن دمـــاءً غزيـــرة تتدفق بين فخذي، وأنني أغتصب حتى الموت. عجلت مشيتي ولم ألتفت لألقي السلام على أي كان. تسربت ضحكات خافتة إلى أذني، واستطعت أن أميز بعض الهمسات، وبعض الكلمات "الله لا يقمها".. "مثل العنزة الجربانة".

لا أدري ماذا سمعت أيضاً.

ركضت، وبقيت أركض حتى وصلت إلى السيارة التي تقل الناس إلى المدينة. هممت بالصعود. بدأت النظرات تفر مني، وسمعت أحدهم يقول "الله يجيرنا". الهجوم الكاسح علي من نظرات الآخرين، جعلني لا أحتمل البقاء تحت جلدي! أردت الاختباء داخله، والهروب من الحاضر. العيون تحدق في صدري، وترصد تنفسي. نزلت من السيارة وتابعت الركض. الناس ينظرون بغرابة، وأنا أهرب. سأختنق حتما إذا ما رأيت كائناً بشرياً. أريد الهروب من هذا المكان. بقيت أركض، وأركض. انفلت مني الكتاب الوحيد الذي كنت أحمله. السموم تنتشر في جسدي، وتحوله إلى كتلة رخوية تذوب في الطريق.

لن أذهب إلى المكتبة.

لن ألاقي صديقاتي في المدرسة.

لن أتصل بسالم.

معدتي تؤلمني، وصراخ ينتشر في زوايا وجودي، لماذا كل هذا..؟

ما الذي فعلته للبشر حتى يعاملوني بهذه الطريقة؟ ركضت في اتجاه طريق العودة، وكلي يقين بأن الجميع سيلتهمني بعينيه مثل وجبة طعام شهية. الخوف كبر إلى درجة أني فقدت الرؤية، فقط عندما فتحت الباب ودخلت إلى غرفتي مسرعة أدركت أنني في أمان. نظر الجميع إلي بصمت. شكلي أقرب إلى الجنون وأنا أرتدي الطاقية، منعاً لظهور التشوه في رأسي.

نظاراتي الطبية تخفي رموشي المحترقة. بعد أن أبعدتني جدران البيت عن العيون الفضولية، أحسست أني وصلت بر الأمان. أطلقت تنهيدة طويلة ولففت نفسي وانزويت في غرفتي. قررت أن أدرس في البيت وأن أوكل لوالدي مسألة تأمين الكتب والدروس لي.

استطعت ببساطة أن أحبس نفسي في البيت فترة طويلة، أقرأ كتب المدرسة، أحضر لامتحان البكالوريا، وكلي يقين أن ما سأفعله شيء له علاقة بالأساطير أو الملاحم المتوارثة جيلاً بعد جيل. في كل يوم أخفي دموعي، أشم رائحة جسدي وارتعاشاتي. أكتم تنفسي وأغمض عيني. صورة سالم الدائمة الحضور، تعشش في نفسي. أفكر بما يفعله الآن، وأغمض عيني على صورة تغرقني بالخجل من نفسي. أحضر ليوم جديد عبر جدران البيت، المساحة الوحيدة المتاحة لي في العالم. مساحة بحجم ومضة. تنظيف الصحون، كنس الأرض تلبية حاجيات أبي وأخي، والأهم من هذا كله، الاحتجاب عن أعين البشر المخيفة.

عيون صغيرة، كبيرة، حادة، ناعمة، لئيمة، طيبة، كلها عيون تحرق جسدي وتغرقه بالخوف.

لم أستطيع تحديد مصدر تلك الصلابة التي انتابتني، وجعلتني قادرة على قضاء تلك الأشهر حبيسة البيت. حتى ما أحتاجه من كتب دراستي كان أبي يأتيني بها من المدينة، وهو في غاية السعادة. عادت ابنته أخيراً إلى تصرفاتها المعتادة. صديقاتي اختفين فجأة. لم يعد جرس الهاتف يرن. أسيمة أخت سالم فقط دأبت على الاتصال بي، على رغم حالة الجفاء التي لاقتها من أهلي. سالم أيضاً اختفى. اختفت حياتي السابقة فجأة، وأصبحت وحيدة في زورق أزرق مع كتب المدرسة. توحشي لم ينته. السماء بقعة منسية تحدق فيها روحي للخلاص من نتوءات البشر. صار أبي يطلب مني الخروج مع خالتي، والذهاب مع بنات أعمامي للتسوق من المدينة. أصبحوا يشفقون علي من حالة الوحدة التي فرضتها حولي، الجيران والأقارب بدأوا ينسون وجودي.

- أين نور؟
- في غرفتها.
- الحمد لله على سلامتها. هدأت روحها بإذن الله

أسمع هذا التعليق دائماً.

صار يتكرر بشكل مزعج، مع تعليقات كثيرة عن العقل الذي هبط فجأة علي، كما يقولون. الفضل والحمد لله يعود للشيخ بو علي أحمد، الله يرزقنا رضاه. الشيخ الجليل، ذو اللحية البيضاء والعيون الطيبة، جاءني أحد الأيام في الحلم وهمس لي:

- نور، أبعدهم عني أريد أن أهدأ في جوف الأرض، أخبريهم نور، إياك والنسيان.
- لماذا تركتني هنا؟
- ابقي هنا، إياك والذهاب إلى البشر. لا تغادريني.

تكرر الحلم عدة مرات. أصبحت أخاف نداءات الشيخ المؤلمة. رويت الحلم لخالتي، نظرت إلي بذهول ولم تنبس شفتاها بحرف. في المساء كان شيخ قريتنا في البيت. لم ينظر إلي بطيبة كما فعل في المرة الأولى. حمل حجاباً وأعطاه لخالتي، ثم اقترب مني. نظر في عيني، بدا منفراً، بجلبابه الطويل، ويديه المرتجفتين. اقترب أكثر، وضع عينيه في عيني:

- يا بنيتي، ما يحدث قد يؤدي بك إلى الموت. عليك أن تعرفي أنك روح تائهة منذ لأزمان قديمة، والآن لبست الجسد. حاولي أن تعطي لروحك فرصة أفضل لسكن الجسد، وحياة أجمل، وإلا فإنك تبعثين بروحك إلى أسفل السافلين.

شرح لي فكرة أن المرأة مخلوق ناعم. ويجب علي الامتناع عن حبس نفسي والانغماس الشديد في تلك الكتب التي وصفها بالشيطانية. وبعد صمت قصير، أضاف أنه من أهم معتقدتنا أن المرأة تحفظ النسل وتحافظ على الاستمرار، وأي محاولة منها لخرق ذلك والتشبه بالرجال وفعل ما يفعلونه، تحولها إلى كائن حيواني في حياتها القادمة بعد الموت.

- ما الذي تعنيه؟

- يعني الله يرضى عليك يا ابنتي أن لا ترهقي رأسك بالتفكير الكثير بما يحدث حولك فهذا من وساوس الشيطان.

- الشيطان! هل تعتقد أني مجنونة.

- لا، ولكن لكل روح دورها ولكل كائن حدوده. أعرف أنك بنت ذكية وسيكون لك مستقبل عظيم ولكن لا تتعجلي المعرفة. سأزورك دائماً وأحاول أن أجيبك عن كل ما تريدينه. فقط تذكري أن جل ما يجب عليك أن تسعي إليه هو رضا أبوك أولاً وأخيراً.

خفت من كلماته ولهجته الهادئة، والواثقة. أغمضت عيني، وعندما فتحتهما، رأيت ابتسامة على وجهه، دلالة الرضا، قام من مكانه، ودس في يدي، حجابا أخضر، ضغطه بشدة وقال كأنه رب يبارك بشره:

- احفظيه في قلبك، لأنك تحملين قلباً كبيراً، أستطيع قراءة ذلك في عينيك.

نظرت إلى الحجاب الأخضر الذي يحتوي على آيات قرآنية وكلمات غير مفهومة، بحبر أزرق غامق، كان الخط غريباً، وكأنه خربشة ولد لا يتقن كتابة، لففته وأعدته كما كان، ثم خبأته في صدري.

كم شعرت ذلك اليوم بالامتنان لكلمات الشيخ، الذي ألقى وهو خارج من غرفتي موعظة على مسامع خالتي وأبي بضرورة الحذر الشديد من توجيه ما يسيء إلي، وقبل أن اسمع صوت إغلاق الباب رفع صوته عالياً:

- الفتيات الذكيات يصعدن السلم درجة، درجة.

الفصل الثاني

دخلت المنعطف الأخير، في طريق السرو الطويل.

شعرت برجفة تسري في دمي.

بدأت أسناني تصطك. خذلتني ركبتاي وانفلتت الحقيبة من يدي أحسست أن أحداً يركض ورائي. هل عرفوا بالأمر؟ نظرت إلى ساعتي.. كانت الرابعة والنصف.

بعد ساعة سينطلق القطار. علي أن أعجل.

ثمة شيء غامض ومجهول.

لم أكن خائفة.

الطيران فقط كان أمامي. شوارع واسعة، بأرصفة ممتدة على حجم حريتي. بالحركة التي أريدها سأعجل فرحي، وربما موتي! الفرح والموت كانا متساويين في تلك اللحظة. إما الموت أو الحياة بحرية وفرح، لا يوجد حل وسط بينهما. دوماً كرهت الحل الوسط، واللون الرمادي. لا يوجد ما يبرر تواطؤ الناس على الموت، وإيقاف تنفس الآخرين، سوى ذلك اللون الرمادي، الذي ندخل فيه دون دراية. لم أرد يوماً التماهي فيه، أو المشي مع الأقدام الأخرى المزروعة على الأرصفة كشواهد القبور.

أمي كانت تقول: نور.. عندما تكبرين لا تلتفتي إلى الآخرين وهم ينظرون إليك، التفتي إلى روحك، واخلي إلى أعماقك فقط.

كبرت ودخلت أمي في نفق الغياب، فتذكرت عبارتها الذهبية تلك. أحسست أن قدمي لا تلامسان الأرض، وأنني كائن خفيف ووحيد يمشي على الرصيف في الزحام.

أعجز عن الطيران.

سيفيقون، ويكتشفون غيابي. سأعجل إذن؟

أين أنت أيها القطار؟ لماذا تبتعد سكة الحديد؟ وأنا أودع بصمت ووحدة كل ما تبقى لي من أطياف القرية. بانت مثل حديقة أشجار بنفسجية صغيرة. هل عشت هنالك كل تلك السنوات؟ ربما كنت، وربما لم أكن! اليقين الآن، أني أخبئ تحت جلدي بنتاً مرتجفة في ثياب

الرجال، وتحمل حقيبتها الصغيرة، وتمضي وحيدة في طريق طويل وضيق، طريق محفوف بقمم السرو العالية. تنأى بي نحو مجهول واسع اسمه دمشق!! دمشق.. الحلم المزروع في داخلي منذ طفولتي. دمشق تلك المدينة السحرية.

هل كان يجب قتل نفسي؟ لكن لماذا يا نور؟ حتى لا يشعروا بالفضيحة؟ لقد أردت الانتقام منهم بالفضيحة... على أعمامي أن يعرفوا قليلاً ما حجم المرارة والألم. وأبي هل أحمله الفضيحة إلى قبره؟ ذلك المارد الكبير الذي لم يلتفت يوماً إلا إلى ذاته. الأب الأكبر، رب الأسرة، الذكر الوحيد المسؤول عن حياتنا، كان يردد دائماً على مسامعنا أنا وأخي علي:

- أنا من خلقكم، وعليكم احترامي وطاعتي.

أما الطاعة فهي أن نكون مجرد تماثيل أمامه، يحلو له متى شاء كسرها وتحطيم ملامحها. نحتها بالطريقة التي يريدها. وكان احترامه يعني الإلغاء لكل ما يحيط بنا. الولد عليه إطاعة والده في السراء والضراء. في إحدى المرات، بعد عودته من رحلة عمل إلى خارج البلاد، طلبت أمي أن أسلم عليه، كما يليق بفتاة مهذبة، لكنه ترك في ذاكرتي، قبل سفره مباشرة. ذلك الكابوس المرعب.

اعتدت الاستيقاظ ليلاً لأشرب كأساً من الماء، وعلى الرغم من أن أمي كانت تضع الكأس يومياً قرب سريري على الكومدينو. إلا أنه لم يكن موجوداً تلك الليلة. نزلت من سريري واتجهت نحو غرفة الجلوس بعد أن سمعت أصوات أنين. خفت، ومددت رأسي من وراء الباب. شاهدت أبي جاثماً فوق جسد أمي، واضعاً يديه حول رقبتها وهي تئن، وعيناها جاحظتان، ووجهها أزرق. أطلقت صرخة مرعبة أيقظته من وحشيته. التفت إلي بينما سعال أمي يفح في المكان. ترك أمي ممددة على الأريكة، نظر إلي وكأنني حشرة. كان يرتعش من الغضب، بصق على الأرض، ودخل غرفة نومه. أسرعت نحو أمي. حضنتها وأجهشت بالبكاء، أما هي فقد انتهت بالصمت والسعال، الصمت الذي أودى بحياتها.

بعد يومين سافر في رحلته تلك التي امتدت أسبوعين، وعاد محملاً بالهدايا، وكأن شيئاً لم يكن.

نهرتني أمي لأبادر بالسلام عليه، كما تقتضي قواعد اللباقة التي حرصت دوماً على زرعها فينا. صورته وهو يحاول خنقها لم تفارق خايلي. ولأننا لم نعتد في البيت على

تصرفات كهذه، كنت مربكة تجاهه، وتخيلت وأنا في عوالم الطفولة تلك انه وحش كرتـــوني، سيبتلعنا جميعاً.

تخيلته يشبه مارد المصباح في حكاية علاء الدين، سيقتلع بيتنا من الأرض ويحمله بما فيه، ثم يطير بنا، أمي وأخي وأنا، إلى جزيرة مهجـــورة، حيـــث الأفـــاعي والديناصـــورات الضخمة، وكان شرط ذلك الحلم أن يكون المارد واقعاً تحت تأثير الساحر الشرير الذي سرقه من علاء الدين. ابتعدت عنه عندما جاء من رحلته حاملاً لي الكثير من الهدايا. طلبت أمـــي مني أن أقبل يده. لم أفعل، وركضت نحو غرفتي، رغم أنه حمل في يده دمية حمراء جميلة، وصار يلوح لي بها عن بعد. قطبت في وجهه. تجاهل تصرفاتي، ودخل مع أمي إلى الغرفة. انسللت خارج غرفة الجلوس، أخذت الدمية ووضعتها أمامي على السرير ومددت لساني فـــي وجهها وأحكمت يدي حول رقبتها البلاستيكية وبدأت بالبكاء. فوجئت بأمي وأبي وهما فـــوق رأسي بينما كنت أطلق من حنجرتي صوتاً أشبه بنباح الكلاب. كانا مذهولين خائفين.

تمتمت أمي وهي تحدق في الدمية: البنت ليست طبيعية، أكيد فيها شي.

ردد أبي ساخراً: هذا دلع بنات، وشد أمي من يدها ودخلا غرفة نومهما ثانية.

استغربت تصرفات أمي مع أبي، حتى عندما كبرت قليلاً وأدركت الحب الهائل الذي كانت تكنه له. حيرني سبب صمتها على تصرفاته، رغم انتمائها الأسري العريق، لا ينقصها أي شيء لتعبر عن رفضها، هي سليلة العائلات التي حكمت المنطقة. رأيتها علـــى الـــدوام جبارة، تفرض حضوراً خاصاً أينما حلت، وتشبه إلى حد كبير الدمى التي كانت تشتريها لي.

امرأة نقية كالثلج. عيون خضراء شاردة، وشعر ذهبي ناعم. الوحيـــدة مـــن محـــيط عائلتي الصغير التي شجعتني على الانفتاح نحو حيوات أخرى بالقراءة والكتابة. منذ السادسة من عمري وهي تجلب القصص والرسوم الصغيرة والألوان، وتبتدع لي حكايـــات غريبـــة، ترويها لي قبل النوم. تخصص يومين من الأسبوع كي تأخذني إلى الســـينما. تتـــرك أخـــي الصغير عند الخادمة التي تعمل لدينا. بعد كل فيلم نذهب لنحتسي الشاي في بيت جدتي. جدتي تدخن البايب، وتأكل أمي البسكويت. أحدق فيهما مفتونة بسعادتي. عندما تريدان أن لا أفهم ما تقولان، تتحدثان باللغة الفرنسية. أمي تتكلم الفرنسية بطلاقة، كانت تأتي لنا بأشرطة (فيـــديو) غير مترجمة، وتحكيها لنا رغم أن لغة الفيلم بالإنكليزية. أنظر غليها بإعجاب وهي تتكلم عدة لغات وتفهم في كل شيء.

كانت أهم من مر في حياتي. أعجبت بثقافتها المتنوعة، وكنت أستغرب ضعفها أمام أبي الذي لم يكن يفقه شيئاً أبعد من منصبه الرفيع في الدولة، كما كان يردد أمامنا. لكن ما هو هذا المنصب الذي جعله يبتعد عن طفولتنا ذلك البعد، ويعاملنا بتلك الطريقة؟ لم يعنني كل ما يفعله. الخوف والاحترام اللذان كنت أراهما في عيون الناس الذين يقصدون بيتنا طلباً لخدمة منه، أو رغبة في إيجاد فرصة عمل، تحولا عندي إلى نقمة على هؤلاء البشر.

ابتعدت أمي عن حياة أبي الاجتماعية ولم تشارك في حضور حفلات الاستقبال أو الولائم اليومية التي كان يدعى إليها. عاشت وحيدة معنا. فراشة من نور أضاءت أيامنا. لم أسمعها تصرخ أبداً. تمنيت أن أسمع شكواها. مخلوق غريب، لم أستطع أبداً وراثة هدوئها الأرستقراطي. القلق في داخلي أكبر من كل المحاولات. كبرت قليلاً وأصبحت في الخامسة عشرة. صرنا نمشي أنا وأمي وجدتي لأمي، فنبدو ثلاث أخوات. أمي تشبه جدتي وأنا أشبه أمي. استغربت هذا الشبه الشديد بيني وبين أمي وجدتي. العيون نفسها، الحواجب، الشفاه الرقيقة. أنظر إلى نفسي في المرآة وأبحث عن جزء من جسدي لا يشبههما.

الطول الفارع. مسحة الكآبة الظاهرة على الوجه. ذبول العينين، كأننا توأمان.. أمي وأنا.

لم أستطع يوماً نسيانها. عاشت لحظات عمري كلها معي. أصابعي تذكرني بأمي. رجلاي الطويلتان. أنيني السري. وأكثر ما يجعلني متيقنة من أني كنت إياها.. انجرافي في الحب. أذكر ضعفها أمام أبي، والوله الذي عاشت من أجله وأدى إلى موتها. الوله الصامت، والأنين الصامت.

تصمت دوماً وتغص بالكآبة.

صمتها قتلها ودمر حياتي بعد ذلك. كانت كثيراً ما تردد: عندما تكبرين ستفهمين معنى صمتي.

صمت أمي يناقض ضجيج أبي.

أبي كان يحب أن يصنع من حوله زوبعة أينما تحك.

لكن هل نجح في ذلك؟

* * *

يحسدني كل من حولي لأن (هادي النمر) هو ابي، الذي لم يكن يستطيع أحد أن يفهمه، فهو رجل منضبط فيما يقوم به، هادئ، ويحيط نفسه بهالة من الغموض بين الناس، ولا يتوانى عن تلبية كل ما يطلب منه، خاصة فيما يتعلق بعائلته، التي يردد دوماً بأن لها فضلاً كبيراً عليه، ولايني أينما تحرك أن يذكر كيف صنع حياته بالطريقة التي يريدها، لكنه أبدا لا يتوقف عند تلك الفترة التي تمرد فيها على كل شيء، حتى عائلته، كان يبدو أباً يجداً، ورجلاً وقوراً، ومهيباً، وأهم ما في حياته هو العمل، وإدارة الشركة الكبيرة التي ترأسها لأعوام، وأثبت كفاءة عالية في إدارتها، والاهتمام بالصفقات التي بدأ يبرمها بين حين وآخر مع شركات أجنبية، حتى صارت بالنسبة إليه في وقت من الأوقات هوسه الأكبر، هذه التفصيلات كان جميع من يحيط بنا يعرفها، حتى في محيط مدرستي الصغيرة والمطلة على البحر بجدرانها البيضاء، سمعت إحدى معلماتي تقول: خلقت نور وفي فمها ملعقة من ذهب، وتبدأ سلسلة من النقاشات بين مدرستي وباقي المدرسات: حول طبعي الخجول، والكئيب، ونزقي الحاد، وعدم رغبتي في الكلم. خلصوا في النهاية إلى أن السبب في ذلك هو الدلال، والرفاهية التي أعيش بها. في واقع الأمر، كنت أخاف التعامل مع رفيقاتي، لأن أمي كانت على الدوام تنبهني إلى أن العالم الخارجي عبارة عن إمكانيات لا محدودة لاقتراف الإثم. يتوجب علي عدم التعامل بأريحية مع صديقاتي، لا،ه من الممكن أن تكون إحداهن سبباً لأرتكب الخطيئة. ابتعدت عنهن بخجل، وكثيراً ما كنت أغرق في البكاء نتيجة أي موقف صغير يصدر منهن، حتى لو كان تافهاً، تصطدم بي إحدى رفيقاتي. تصرخ المعلمة في وجه إحدى الطالبات، فأبدأ بالبكاء ولا أنتهي. تأتي المعلمة وتبتسم لي. تحاول إرضائي. كنت محسودة من الجميع على الرقة المتناهية التي أتلقاها من مدرساتي. كبرت قليلاً، والفتيات يتغامزون من حولي. منصب أبي في الدولة هو سبب اهتمام المعلمات إذن. الفتيات كن على حق، لأن باقي رفيقاتي لا يتلقين نفس المعاملة، والسبب الأكبر الذي دعا الجميع إلى معاملتي بتلك الطريقة، هو الصمت الحزين الذي أجدته على الدوام.

أكثر ما أرغبني في عوالم الطفولة تلك، الرواح والمجيء إلى المدرسة. هناك سيارة تنتظرني دائماً أمام باب المدرسة.ز

سيارة بحجم تابوت..

سائق يجرني من يدي، يفتح الباب، أدخل في التابوت، أتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعني، أو تنقلب السيارة على رأسها لأحظى بيوم أمشي فيه على قدمي. أخرج من باب المدرسة الحديدي الأسود. يقف رجل السيارة في وجهي ويطلب مني بكل أدب أن أرافقه. صديقاتي ينظرن إلي بحسد. كم حلمت بالمشي في الشوارع كباقي الفتيات. أرمي قدمي في الأرض حيث أرغب.

كثيراً ما تخيلت أني أمشي في أسواق عتيقة، خاصة في السوق القديم، المقبب والذي يتلون حجره حسب الشمس والضوء، فهو في الليل مختلف عنه في النهار، والمخازن الضيقة التي تلتصق ببعضها على امتداده، كانت أشبه بحفر دائرية نقشت في الحجر. الأصوات المختلفة، والأشكال الغريبة للبشر وهم يروحون ويجيئون ضمن مساحات ضيقة، وخانقة. يشترون البضائع ويتنهدون ويحلمون ويتحسرون. هذا السوق الموغل في القدم، والذي كانت جدتي تقول عنه إنه كان مركزاً للقاء الكثير من التجار ومن كافة الجنسيات. كانوا يتركون سفنهم في الميناء ويتخلصون من حمولتهم في السوق. أسمع الحكايا من جدتي، وأحلم لو أعيش في زمن قديم، أيام كان السوق مركزاً تجارياً هاماً. أتخيل نفسي أحد التجار الذين يجوبون العالم وينتقلون في الأرض مثل الغيوم التي لا يقف في طريقها عائق. وفي مرات أخرى حلمت أني أجوب أزقته الضيقة، متنكرة في ثياب ولد فقير.

روت لي جدتي أن أحد التجار الذين حطوا يوماً على ميناء اللاذقية، منذ أزمان بعيدة، أحب إحدى نساء المدينة وظل يلحق بها حتى عرف مسكنها. ورغم أنها كانت متزوجة، فقد تعلق بها، وترك تجارته. رحلت سفينته، وبقي في المدينة أمام بيت محبوبته، وتحول حبه إلى وله جارف. وعندما صدته المرأة، وأخبرت زوجها بملاحقته لها، قرر أهل السوق، طرده من المدينة. تحول إلى متشرد، ثم رمى بنفسه ذات يوم في البحر ورحل إلى غير رجعة. دلتني على بيت المرأة في مدخل السوق، كان عبارة عن بعض القطع الخشبية المهترئة وركام من التراب الأحمر. الكثير من القصص التي روتها لي جدتي مبثوثة في كل زاوية من زوايا السوق. مخزن العطار الذي كان يبيع عطوره مجاناً في كل سنة تضع فيها امرأته مولوداً ذكراً، لذلك كان السوق يكتظ بالمشترين الذين يبدأون من مخزن العطار ذاك وينتهون في نهاية الزقاق. أما العطار، محب الأبناء الذكور، فقد مات ولديه ثلاثة عشر ولداً ذكراً، مازال أحفادهم يديرون في السوق عدة مخازن للعطارة.

صنعت عالماً من الأمنيات والقصص التي لم تتحقق يوماً، كل ذلك وراء زجاج السيارة وهي تمر أمام البحر وتعبر الميناء باتجاه البيت. المشي في الشوارع. كباقي الناس، تنفس الهواء، الركض على الأرصفة، رؤية وجوه البشر، وتلمس البضائع المعروضة على الطرقات وسماع صياح الباعة. رائحة الفلافل المنبعثة من المحلات المنتشرة أمام السوق العتيق تجعلني أتلمظ، وأطقطق أسناني أمام سائق السيارة. أطلق ضحكاتي وأنا أمد رأسي من نافذة السيارة، وأحلم بالقفز والطيران. التحلي في عوالم الممنوعات التي فرضتها أمي لأنها خافت علينا من العالم الخارجي وتسرب خوفها إلينا.

أبي كان يتهمها بالإفراط في دلالنا. تدور نقاشات بينهما على مائدة الطعام، فتؤكد أمي أنها لا تريد لنا التلوث بالعالم الخارجي. يستغرب أبي عن أي تلوث تتحدث. تتلعثم أمي وتغص وتقول:

– أريد أن يكونوا أمراء حقيقيين، لا يتعاطون مع أي كان، عليهم أن يشعروا بخصوصية حياتنا، وأننا من عائلة مختلفة عن بقية العوائل.

– لكنك تفسدينهم بذلك.

– على العكس، أنا أزرع فيهم القيم والمثل والأخلاق.

يستمر النقاش حتى ينتهي بصراخ أبي، وبدموع أمي المختنقة. نتابعهما أنا وأخي ذاهلين. كبرنا وصارا أقد حدة في النقاش أمامنا. اختناقات أمي تكررت سراً وبعيداً عنا، عندما انتقلنا إلى بيت الضيعة بعد الكارثة التي غيرت حياتنا.

أحاول أن احدد ملامح تلك الفترة بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمري. كنت محملة بأحلام غريبة عن الموت والولادة، مرمية على حواف التساؤلات، بين بيت جدتي في حارة (المار تقلا) المحببة إلى قلبي وبيتنا في المشروع الأول. لم أعرف من الدنيا أكثر من هذين البيتين. وفي فترات الإجازة الصيفية يقوم أبي بوضعنا في الشاطئ الأزرق حيث نملك (شاليه) يطل على البحر والأجساد الملقاة على الرمل الحار. كنا أخاف الرمال اشعر أني سأغوص فيها وأختنق وأنتهي في الظلام. لذلك أهرب إلى الأزرق..

الأزرق الذي مازال يرافقني، في أحلامي، وكوابيسي.

انتشلتني قراءة الكتب من وحدتي، وكانت المتعة المطلقة في ذلك العالم الهلامي، لأنها أتاحت لي حرية الخروج من عالم البيت والحديث مع شخصيات أخرى. بالإضافة إلى كتب

جدتي هي صديقتي الوحيدة التي عاملتني دوماً على أني كائن إنساني له الحق في أن يفعل ما يريد. عززت عندي جذر الحرية الصغير الذي نما في صدري. كانت توبخ أمي على تربيتنا، أنا وأخي، بطريقة القرون الوسطى. عزت ذلك إلى تأثير والدي عليها. جدتي تعتقد الحياة أقصر مما نظن ويتوجب علينا أن نعيشها بامتلاء، وكانت تقول لي بأنها منذ اليوم الذي مات فيه جدي وحتى اللحظة لا تشعر بغيابه، لأنها قادرة على استحضاره في روحها وعندما أعبر عن دهشتي لما تقوله كانت تجيبني مع دخان (البايب) المشتعل دوماً: يكفي أن تغمضي عينيك وتفكري بمن تريدين وتحبين حتى يحضر إليك، ثم تغمض عينيها بهدوء، ولأن جدتي كانت وحيدة فقد وجدت في رفقتي ملاذاً لها، فهي لا تذهب إلى السوق دون اصطحابي، ولا تسافر يوماً خارج المدينة إلا وأنا برفقتها، كانت تحيطني برعايتها وأفكارها الغريبة، وشتائمها المتواصلة وغضبها على بني البشر الذين لا يدركون معنى الحب ويفوتون على أنفسهم فرصة العيش دونه، وكانت تضيف: المساكين لا يعرفون أن الحياة دون حب مثل جهنم بعد الموت، استغربت كلماتها في تلك الأزمان ولم أفهم ما تعنيه، لكني كنت أحفظ كل ما تردده في ذاكرتي.

لم تكن عوالم طفولتي معقدة. كانت شبيهة بحكاية أميرة، حبيسة قصر متـرف، حاصرها الناس بالاهتمام، والأوامر والحب. أما التوصيات فلا نهائية: نور لا ترفعي صوتك. نور كبرت، لا تضحكي بصوت عال، لا تعبسي أمام الآخرين. نور، من المعيب التحدث مع أي كان. أمسكي الشوكة باليسار. أرفعي ظهرك، امشي ورأسك مرفوع للأعلى، لا تلبسي الشورت، صرت بطول النخلة..

لا تقضمي أظافرك.

لا تتصرفي كالصبيان.

أحتاج كتاباً لأحصي التنبيهات التي ترددت على مسامعي يومياً.

أتأفف، وأطلب الذهاب إلى بيت جدتي. لا تعترض أمي على وجودي مع جدتي، لكنها لا تدعني أذهب وحدي. تطلب من السائق إيصالي، فأفقد متعتي في الرواح.

جدتي عادة ما تتركني أتصرف بحرية.

تأخذني إلى الميناء، المكان المفضل لدي. أراقب السفن وأحلم بعوالم غريبة وجديدة، وجدتي تحدثني عن قصة حبها الكبير مع جدي. كيف وقعت في حبه من النظرة الأولى.

تضحك بصوت عال وهي تسر لي أن نساء عائلتها من النوع الذي يعشق حتى الوله، وهذا ما حدث مع أمي حين أصيبت بالعشق واستطاع أبي –رغم بدائيته– على حد قولها، سابها عقلها بين ليلة وضحاها. الغريب في الأمر أن جدتي عاملتني دوماً أني فتاة ناضجة، وربما هذا ما جعل روحي تحلق في قصة حبها الغريبة والجميلة مع جدي الذي كانت تذكره وتبكي كطفل صغير، وهي ترنو إلى البحر والسفن المبتعدة على الشاطئ.

تلك النزهات البحرية..

كانت أولى الفراشات التي طارت بي بعيداً عن الخوف المزروع في صدري من أبي سليل الأسرة الإقطاعية، وأمي المعبأة بأوهام العادات والدم الأزرق..

* * *

في إحدى الأمسيات، بعد أن عدت وجدتي من نزهة بحرية طويلة في مقهى العصافيري المواجه للميناء، وجدنا أمي محمرة العيون، وأخي متجمداً على الأريكة خائفاً، ينقل نظراته بيننا وبين أمي التي سحبت جدتي من يدها، ودخلتا إلى المطبخ. بقيتا لوقت طويل ثم عادتا. لم أعرف ما حدث، لكني أحسست أن مصيبة كبيرة في انتظارنا. لم تكن أمي يوماً على هذا الحال من القلق. نظرت إلي بحيادية وقالت: نور، اذهبي مع جدتك، ستأتي لقضاء بضعة أيام معنا.

أطلقت صرخة مدوية تعبيراً عن فرحي لبقاء جدتي في بيتنا، لكن نظرة من أمي كانت كافية لتجعلني أحبس فرحي. النظرة التي لم نحتج في أي يوم إلى أكثر منها حتى نفهم أنها غير راضية. علينا الامتثال لأوامرها دون نقاش.

سحبتني جدتي من يدي وانطلقنا. جدتي ترتجف، وشفتاها الزرقاوان من التدخين تتمتمان بكلمات غير مفهومة. وصلنا البيت، جلست على الأريكة وفتحت حقيبتها الجلدية. أخرجت (البايب) من حقيبتها. كانت تدخنه بطريقة الرجال، أشعلته ثم نظرت إلي بتركيز:

– نور، ستتغير حياتك، وستكونين بنتاً جيدة مع أمك.

كنت ذاهلة رغم معرفتي بأن مصيبة عظيمة حدثت:

– ستنتقلون إلى بيت الضيعة.

لم أحرك ساكناً، لأني لم أعتد أن أظهر ما في داخلي، خوفاً واحتراماً للآخرين.

– يعني، أبوك ليس مسافراً، إنه في السجن.

صرخت: السجن.

كلمة السجن تعني لي الإثم والحرام والقتل وكل ما هو سيئ في العالم.السجن مرتبط بالناس الأشرار والسوء. شعرت بالقشعريرة.

تابعت جدتي كلامها:

- مؤقتاً، الدولة حجزت على البيت..

لم أفهم ما تعنيه..

لماذا أبي في السجن، ألم يكن مسافراً؟ لماذا تأخذ الدولة بيتنا؟ ولماذا سنرحل إلى الضيعة؟ ولماذا..؟ ولماذا..؟

- أمك لم تقبل بالمجيء إلى بيتي.

نطقت جملتها بألم.

- أبوك لا يريدها أن تبقى في اللاذقية..

كانت تتكلم بهذيان وأنا مستغربة حالتها، ما الذي غير الكون فجأة. سيختفي أبي من حياتي ولن يعود لتعذيب أمي. لم أتأثر، وفكرت أنه من الآن فصاعداً سأتصرف بحرية، خاصة في الضيعة.

لا حواجز، لا سيارات تأخذني كالسجينة، لا قيود أمام الجيران. باختصار، حلم صغير للحرية.

عدنا وجدتي إلى البيت. أعمامي يشربون القهوة بصمت، ثم يلقون باللوم على أبي وتصرفاته. عمي قال:

- لا تخافوا.. هادي لديه من يحميه.

أجابه عمي الآخر:

- كان عليه أن يكون أكثر حذراً، إنها فضيحة كبيرة.

الجملة الوحيدة التي نطقتها أمي: لا داعي لكل هذا الكلام، جميعكم استفدتم منه، هل هذا وقت مناسب لإلقاء اللوم عليه وهو في السجن؟

لم يجب أي واحد منهم. أنهوا شرب القهوة وانصرفوا.

أم علي التي كانت تأتي يومياً لتنظيف البيت، بكت في المطبخ بصوت عال. انتبهت إلى أني أشعر بوجودها للمرة الأولى. طلبت أمي منها الصمت ورتبت على كتفها، ثم قبلتها

ووضعت في يدها بعض النقود وصرفتها. على الباب كانت حقيبتا ملابس في انتظارها، أعلنت أم علي امتنانها لأمي وهي تبكي. جدتي كانت حيادية تجاه ما حدث، ولكنها لم تخف نظرات الاستنكار، عندما طلبت منها أمي مرافقتها إلى الضيعة. جدتي لم تحب أبي يوماً، وعلى غير عادة الأمهات، كانت تطلب من ابنتها أن تتركه وتعيش معها، لكن أمي لم تفعل لأنها أدركت، وقد عرفت ذلك مؤخراً، أنها قررت الموت معه ولأجله، بعد أن قطعت عهداً على نفسها منذ ليلة زواجها الأولى، أنها ستكون الخبز الذي يعيش به.

وحدث هذا، وظلت كذلك حتى لحظات موتها الأخيرة.

أمي، امرأة الحزن والحب، علمتني معنى الحب، وكيف تعشش المرأة في توهج الرجل وتضيع بين تلافيه دون رجوع، ليس ضعفاً بل تماهياً في ذات أخرى، ورغبةً في العطاء.

استغربت الهدوء الذي أصابها فجأة وهي ترتب حقائبنا، مع دموع لم تنقطع منذ لحظة بدء الرحيل..

رحيل نحو مجهول لم تألفه..

لكنها تدرك أنه الموت القادم.

* * *

أهمس وأنا التفت ورائي، أودع رائحة الصباح وأشجار الليمون: ماما...

ألتفت إلى ظلال القرية، ها أنا أرحل عنها بعد سنوات أربع من تلك المصيبة. الورود التي اعتدت ترتيبها فوق صدرها وهي تغفو تحت التراب ستذبل.

لن يأتي مخلوق ويهدهد صدرها بالورود.

ستصبح أمي شاهدة قبر رخامي فقط.

أتابع المسير.

خيوط باردة تنسل من الصباح تعشش في روحي، والقطار ينتظر بفضول تسرب البشر إلى جوفه ليهرب بهم بعيداً. المحطة كئيبة في الصباح. ستودعني هي الأخرى إلى جنات دمشق. الراكبون يغشى وجوههم النعاس. حشرت نفسي بينهم وأنا أرتجف وبيدي تذكرة السفر. تمعنت فيها طويلاً خائفة أن تفلت مني، إنها بمثابة صك الأمان الذي سيبعدني عن هذا

المكان. النسمات ما تزال باردة، شعري القصير لا يحميني منها، تذكرت أنه حتى وقت قريب كان طويلاً يحمي جسدي. شعر مسترسل أشقر، يشعرني بالضياء وهو ينتشر حولي.

شممت رائحة لحم بشري. كنت وحيدة. ابتسمت لجنوني في ذلك الوقت الذي ألقيت نفس في النار. أعلن القطار صفيره. كان المسافرون يتدافعون بضجر وبلا مبالاة. وضعت قدمي على درج القطار، الكثير ممن يحيطون بي ينظرون إلي بريبة. تجاهلتهم واتجهت إلى مقعدي. جلس بالقرب مني عجوزان وفتاة في وسط العمر، من الواضح أنها ابنتهما.

انطلق القطار ببطء.

أغمضت عيني وتظاهرت بالنوم، تجنباً للفضول.

* * *

امتعضت جدتي من تخلي الناس عن ابنتها وهي في محنتها الكبيرة. صارت تسب وتشتم الناس الذين يلتفون حول القوي، وعندما يسقط يهرب منه الجميع. وأمي ترد عليها بهدوء بعد كل نوبة غضب، وهي تمسح على رأسها، والدموع في عينيها: هذه هي الحياة، اختبار الألم في الإنسان. يزداد غضب جدتي وتصرخ: متى تتخلين عن إحساسك بأنك قديسة؟ ألا تنزعجين؟ هيا اشتمي حظك والناس، واشتمي الصدفة التي جمعتك بهادي، أليس الذنب ذنبه؟ هل اعتقد أنه سيصل إلى السماء، ألا يكفيه ما جمع من أموال حتى يورط نفسه في مشاكل اقتصاديه مع الحكومة؟ هل اعتقد أن منصبه سيحميه؟ ها هو الآن يقع. لماذا؟ من أجل أي شيء، لا أعرف. كان في إمكانه أن يستلم منصب محافظ المدينة، ويكسب احترام الناس، لولا جشعه. سمعت أنه كان على خلاف مع أحد الضباط الكبار، لذلك سحب البساط من تحت رجليه.

لا تكف جدتي عن مثل تلك الأحاديث، ولا ترحم أمي التي كانت، في نهاية كل نهار، تزم شفتيها وتتوسل إلى جدتي باكية أن تكف عن الحديث بهذه الطريقة أمامنا.

أقرباؤنا اختفوا، ولم يحاول أي منهم معرفة ما نحتاجه. أعمامي كانوا يمرون بشكل سريع، يلقون التحية ويختفون. فقط اثنان من أولاد عمي، ساعدا أمي في نقل أثاث المنزل الخفيف الذي استطاعت جلبه من بيت اللاذقية.

أغلقت أمي الباب علينا حتى موتها، ولم تسمح لنا بالتعامل مع أهالي الضيعة. رتبت أمورها وحدها بهدوء، والأساور الذهبية التي لم تستعملها يوما، كانت كافية لتسد بها حاجتنا.

ذهلت كيف اختفى ذلك الزمان فجأة من حياتنا، وتحولنا إلى فقراء. وحقيقة لم يكن يعنيني من الأمر شيء سوى المزيد من الحركة والانفلات من القيود، على الأقل هذا ما توهمته.

لحسن الحظ انتقلنا إلى الضيعة بعد انتهاء العام المدرسي. ابتعد عنا أكثر البشر الذين عرفناهم. عرفت لأول مرة ما يقال عن أبي. كان ما يقال بشعا إلى درجة مؤلمة، حتى أن الجميع تهربوا من الوقوف إلى جانبنا.

"حرامي، سرق الدولة. متورط في قضية تهريب أسلحة..".

ما الذي يحدث؟

أبي موسوم بالخيانة!

أنا ابنه خائن، سارق..؟

لطالما أقام الدنيا وأقعدها إذا أحس أن أحدنا يكذب، ولو كذبة صغيرة. لطالما حدثنا عن الحلال والحرام والخوف من الله.

سألت أمي وأنا أنشج: هل صحيح أن بابا حرامي وخائن؟

أجابت بالنفي، وأكدت لي أن ما يحدث ليس سوى وضع مؤقت، وأن بعض المشاكل تواجه أبي وأنه في انتظار محاكمة اقتصادية وسيخرج قريبا. بدأت تحدثني عن أبي وعن خصاله الحميدة وتذكرني بالأيام الجميلة التي قضيناها سويا.

صورت أبي كبرت جدا واحتلت البيت، ببزته الرسمية الأنيقة وابتسامته العريضة أمام مخيلتي. تذكرت الأشخاص الغرباء الذين دأب على دعوتهم إلى البيت والولائم الكبيرة التي كانت تقام في بيتنا، كنا نصطف أنا وأخي علي وأمي، بكل احترام وأدب نرحب بالمدعوين، وبين فترة وأخرى كان بعض الضباط ونساؤهم يفدون إلينا في مساءات الصيف، لقد كان أبي غريباً وغير واضح الملامح بالنسبة لي، لكن أكثر ما أذكره منه أنه كان يشبه التماثيل، لا أكثر.

بعد صمت أمي بوقت طويل صرخت لأول مرة بوجهها، المرة الأولى والأخيرة: أكرهه. ثم دخلت إلى غرفتي وسط ذهولها. كانت ذكرياتي مع أبي تمر أمامي كلوحات متدفقة من شاشة تلفاز. أذكر اليوم الذي دافعت فيه عن (سناء محيدلي)، تلك الشابة الصغيرة التي ضحت بنفسها في أول عملية استشهادية في الجنوب اللبناني. كنت مفتونة بها وأنا أراقبها

على شاشة التلفزيون، حالمة بالمعاني البطولية التي فجرتها في داخلي. لم يعجب أبي بتعلقي حول بطولتها. اتهمها بالكفر لأنها قتلت نفسها. وقتها صرخت فجأة: سأفعل مثلها في يوم من الأيام. عنفني وطلب مني الدخول إلى غرفتي. حمل أمي المؤولية الكاملة، لأنها كانت تسمح لي على الدوام بمرافقة خالي ومحاولة تقليده. أخذ يسب هذا الجيل وأمة العرب التي لا تفقه شيئاً في النضال والسياسة. صرخ متعمداً أن اسمعه: هؤلاء الشباب مجانين يتم استخدامهم تحت ستار المقاومة والبطولة. تبكي أمي عندما يتحدث عن خالي بهذه الطريقة. ترسم الصليب على صدرها وتترحم عليه، فيزداد غضب أبي وينتهي الحديث بينهما كالعادة، صرخات أبي وشهقات أمي.

بعد هذه النقاشات، يكون وجه أمي في اليوم التالي ذابلاً، عيناها منفوختان ومحمرتان. حقدت على أبي وقررت عدم البوح بأفكاري أمامه.ذكريات كثيرة تأتي وتغيب لكنها لا تترك في عوالمي إلا الرغبة في بقاء هذا الرجل بعيداً عنا.

المصيبة لم تتوقف عند اعتقال أبي. بعد أيام كان يتوجب علينا ترك بيت الضيعة أيضاً، لأن الدولة حجزت عليه. كيف ولماذا؟ لم أعرف حينها. جرت الأمور بسرعة، وحمدت أمي ربها، لأن الأمور انتهت عند هذا الحد، لكنها، ولأول مرة تجد نفسها في العراء بعد أن تم تجريد أبي من جميع ممتلكاته. طلبت جدتي منها العودة إلى اللاذقية ريثما تهدأ قليلاً، لكنها لم تفعل. أرجأت البت في هذا الأمر حتى تزور أبي في سجنه.

بعد يومين، عادت من زيارته رافضةً فكرة الانتقال إلى بيت جدتي لأن والدي لم يوافق. طلب من أمي أن تسكن في بيت الضيعة الكبير، البيت الذي لم يسكنه بشر منذ عشرات السنين، بيت جدي لأبي.

صمتت جدتي أمام قرار أمي. كانت تعرف أن أبي عندما يقرر أي أمر، ستنفذ أمي كلامه بكل حب، وأن مكمن سعادتها في تنفيذ أوامره. انتقلنا إلى بيت جدي القديم، وحزمت جدتي حقائبها ورحلت، كانت تلك المرة الأخيرة التي رأت فيها ابنتها. يومها قالت لأمي:

- سأعود بعد فترة قصيرة.

وعادت..

لكن لتلقي نظرة الوداع الأخيرة على جثمان ابنتها.

جاءت عمتي إلى زيارتنا وكانت مفاجأة بالنسبة لنا، لأن عمتي ابتعدت عن البشر، وبقيت في عزلتها وحيدة بعد أن بنت لزوجها شيخ الدين الجليل مزاراً قرب بيتها. ووزعت ما تملكه من أراضي، وكل ما ورثته عن جدي، على الفقراء، كي تكون أكثر قرباً من الله. بكت بحرقة أمام أمي وسألتها إن كانت في حاجة إلى مساعدة. شكرتها أمي بلطف، وأكدت عمتي أنها من دفع أعمامي إلى إعطائها البيت القديم على الرغم من اعتراضهم، إلا أن جهودها أثبتت فاعليتها. ودعتها أمي بلباقة ودخلت لتقف أمام مرآة الخزانة العتيقة، التي كانت تخص جدتي لأبي المتوفاة. وضعت يدها على وجهها وتعالى في البيت أنين كبرياء، ونحيب أنفة. محاولاتها في إخفاء ذلك البكاء كانت فاشلة، لأننا أحسسنا به على الدوام.

الحياة اختلفت في البيت الجديد. بدأنا نميل إلى الشحوب خلال شهر. أمي تزداد نحولاً. أخي الصغير علي ذو الغرة الشقراء وذو الوجه الشبيه بوجه الفتيات، يصبح أكثر عدائية.

أغلقت أمي علينا الأبواب.

منعتنا من الاختلاط بأحد.

كي لا ننس أننا لم لنكون بشراً عاديين.

* * *

ازدادت أعباء البيت، وصار يتوجب علي القيام بالكثير من الأعمال التي لم أكن أقوم بها مطلقاً. ما كان يؤلمني في أعمال المنزل جلب المياه من البئر، ونقلها بواسطة سطل بلاستيكي أسود، ذي حواف جارحة. منعتنا أمي في البداية من الانغماس في أعمال البيت، لكنها لم توفق في القيام بها وحدها. كنا كخلية نحل ندور طوال النهار حول البيت ننظفه من الداخل والخارج. البيت واسع ويقع على رابية تطل على جميع بيوت العائلة، مثل قصر مهجور، تتوزع على جانبيه أشجار التين والزيتون، ويصله بالطريق الرئيس، طريق ترابي ضيق، كان غير واضح الملامح، لأن أحداً لم يعد يدوس تلك الأرض التي نمت فيها الحشائش وضيعت ملامح الدرب فيها. جدران البيت طينية، الأعشاب الطويلة تحيط بها من كل الجهات.

أمضينا عدة أيام في تنظيف ما يحيط بالبيت المكون من عدة غرف.

من تلك الغرف لم نستخدم سوى اثنتين، لأن الغرف كانت مهملة إلى درجة أن جدرانها الطينية كانت على وشك التداعي. الغرفة الأوسع، التي خصصتها جدتي لأبي فيما مضى للمؤونة، حولتها أمي إلى غرفة صالون. غطت الحيطان بستائر مطرزة قديمة، والدعائم الخشبية التي كانت تبدو من السقف وكأنها على وشك الانهيار تركتها أمي على حالها، مصرة على أنها في حال جيدة. مصارف المياه المحفورة وراء البيت والظاهرة للعيان، كانت ممتلئة بالأوساخ والأعشاب، وبدت كأنها لم تكن موجودة. استطعت وأمي تنظيفها وإعادتها إلى حالها، بعد أن قضينا نهاراً كاملاً نقتلع الأعشاب، ونحفر تلك المجاري الصغيرة لتجري فيها المياه الوسخة من جديد، وتصب في نهر القرية.

من الصعب تخيل الأيام الأولى لوجودنا في البيت، كان الأمر أشبه بعقوبة لقضاء السجن. لا نعرف متى نستيقظ، ومتى ننام، ومتى نأكل. التمدد على الفراش لأول وهلة كان كافياً ليجعلنا، أنا وأمي وأخي، نغرق في نوم ثقيل من شدة التعب.

إنني أخرج من زمن وأعود إلى زمن ماض وحكايا بعيدة. أسأل أمي أن تأتي بأحد ليساعدها فتأنف من ذلك. عادة ما تقول إن أقرباءنا يروننا بأم أعينهم ولا يحرك الواحد منهم ساكناً.

اعتقدت حينها أن جميع الرجال الذين يعملون لدى عائلتي هم ملك لنا، كأي قطعة أرض نمتلكها. وفي طفولتي خالجني شعور أنني أستطيع تحريكهم كيف أشاء. أمي تلومني دائماً على تلك الأفكار وتوبخني على هذه المشاعر. ذات مساء، وأنا أغفو في حضنها، همست:

نور! عاملي الآخرين كما تعاملين نفسك. ليس من الضروري أن تساويهم بقدرك ومكانتك وانتمائك، ولكن تعاملي معهم على أنك تنشرين بركاتك عليهم من فوق، وأشارت إلى سقف البيت. نظرت في عينيها، وتأكدت أنها عاشت طوال عمرها وهي تتصرف كأميرة.

جددت أمي بعضا من أثاث المنزل، الذي كان بسيطاً ورخيصاً. كل قطعة ترتبها تنظر إليها بحب. تتحرك بسرعة في البيت، تضع يديها حول خصرها، تتكئ على الجدار. تجلس القرفصاء، تحدث نفسها وتحدثني في كل حركة تقوم بها: نور، هنا سأزرع شتلات ورد، هناك سأضع لوحة الأريكة القرمزية. وراء الباب، أعلق مرآتي الفضية. على اليسار اللوحة الخريفية. انظري! هذه لوحة قديمة، جاء بها أبي من باريس، لونها بلون الحيطان..

تظل تلقي تعليقاتها حتى نهاية النهار. الغريب أني بعد أيام تفحصت البيت القديم، وكانت المفاجأة. جنة من الزهور البنفسجية والسنابل اليابسة وزهور عباد الشمس التي بلون الأرائك. لوحة سريالية صنعتها من قماش الستائر وأرواح هفهافة وزعتها عبر الكريستال الذي احتفظت به من طفولتها.

صار بيتاً سماوياً، حولته أمي إلى مصنع حب، قبل خروج أبي من السجن بيومين.

رغم سنينها الأربعين، كانت تبدو في غاية الجمال، نحيلة، رشيقة، ترفع شعرها الأشقر بجديلة طويلة، وتلفها حول رأسها، وتشبه السندريلا. تعاملت معها وكأنها مخلوق راحل ولا ينتمي إلى البشر. رائحة الفقدان لوعتني، كيف؟ لا أعرف. إن حدساً غريباً جعلني أرى أمي تطير وتبتعد بين غيوم زهرية، ذلك الحدس رافق حياتي دائماً وجعلني أعيش العذاب مضاعفاً. بدأت أراقب أمي بدقة ولا أبتعد عنها، حتى في اليوم الذي خرج والدي فيه من السجن.

أما والدي، وبعد خروجه فجأة من السجن، فقد بدا أكثر شيخوخة، لكنه لم يفقد أبداً أنفته واعتزازه بشخصه. رفض الحديث عن سجنه، والأسباب التي أدت إليه. عامل القلة التي جاءت لزيارته كأمير حقيقي. أخوته قاموا بزيارته ليظهروا أنهم أدوا واجباتهم كما يليق بعائلة كبيرة. لكنهم في أثناء جلوسهم معه لم يدخلوا في تفاصيل الضائقة المادية التي عشنا فيها. وفي واحدة من تلك الأماسي الكئيب، احتضنتني أمي ومسدت على شعري بحنو دافئ: البشر غير معنيين بحب بعضهم البعض، هذه طبيعتهم. الخير والجمال بعيدان عن بني البشر، لذلك هم بعيدون عن الله. احفظي هذا في قلبك.

وتلك آخر جملة سمعتها من أمي.

في الصباح، أفقنا على صراخ أبي، وعلى تمتماته الغريبة التي زادت من غموضه أمامي، كان يهذي على سرير أمي كطفل صغير، وهو يلطم وجهه، ويعض شفتيه، رافضاً الابتعاد عن أمي التي كانت راقدة إلى جانبه بلا حراك. كالحلم اختفت، كما اختفى عالم الطفولة الجميل. هكذا كانت أحداث حياتي تمر بسرعة وفجأة، لا تترك لي متسعاً من الوقت لأفكر، أو حتى لأترك أحاسيسي تأخذ فرصتها في التعبير عن ألمي.

رحلت أمي، دون أن أعرف كيف؟

لماذا يغيب البشر فجأة؟ ونستمر بالعيش بعدهم، كأن شيئاً لم يكن. كل شيء كان يجري رغماً عني، كل أمر أبحث عن سبب له، فلا أجد سوى الفراغ.

بدا أبي مذهولاً بصمتها. هذه صفعة ثانية وجهها له القدر بعد أن خسر أحلامه بتكوين إمبراطورية شبيهة بالتي كونها رفاقه في الحزب، فهو لم يعرف كيف يمسك بالخيوط جيداً كما كان يقول لأمي ليلة خروجه من السجن. صرخ أبي وهو يرى المرأة التي أحبها يوماً بجنون، تنتهي إلى القبر. في اللحظة التي سمعت فيها صراخه، عرفت أن أمي ماتت، ركضت فزعة من سريري باتجاه غرفة نومهما، التي حولتها أمي غلى مخدع ملكي صغير بملاءات بيضاء، وجدران ملونة بلوحات غريبة، خبأتها منذ زمن بعيد لأميرات أوروبيات، يرتخين بكسل في مخادعهن، ويطلقن من عيونهن نداءات أنثوية جارحة.

قبل أيام من موتها حدث أن وجدت الباب نصف مفتوح، وكان رأسي يندس بين الفراغ المحصور ضمن دفتي الخشب العتيق. كان المشهد أوضح مما يجب، وكأن الظلام انزاح في تلك اللحظة القدرية الحزينة ليجعلني أرى أبي يصفع أمي، وهي تنشج بصمت. حاول أن ينزع عنها ملابسها وكانت ترفض رغم إلحاحه. تتوسل إليه أن لا يقترب منها. تحلف بالرب إن هو لمسها فإنها ستموت على الفور. قالت إنها أقسمت في صلواتها، ومنذ أن عرفت بخياناته لها أن لا تدعه يلوث جسدها. لم يكن يأبه لكلماتها. أغمضت عيني وأنا لا أستطيع الحراك. حاولت القفز كالأبطال لتخليص أمي منه، لكن رجلي لم تطاوعاني. بقي أنين أمي وسط صمت الليل. بقيت على حالها ساكنة بلا صوت. عدت إلى غرفتي. وقبل أن أدخل سريري وأغمض عيني، قررت اعتبار ما رأيته، مجرد حلم، حلم مزعج لا أكثر.

كبرت.

تساءلت طويلاً، كيف تحب امرأة رجلاً هذا الحب، ولا تسمح له بمضاجعتها؟ لم أفهم ذلك ولم أعرف أن حب أمي لأبي كان على الدوام رغبة إلهية منها في البقاء إلى جانب الرجل الذي منحته قلبها وجسدها كما يليق بامرأة نبيلة. ولأنها عدت زواجها مقدساً، وعدت مغامرات أبي النسائية نوعاً من الدنس، رفضت جسده وبقيت على حب الروح التي صنعتها كما تريد.

شخصية أمي الغريبة طوقتني طوال حياتي بثنائية الروح والجسد.

حين تحب المرأة الرجل، هل تستطيع أن تمنع نفسها عنه؟ وهل ينفصل الحب الروحي عن الحب الجسدي؟ وهل تستطيع المرأة مشاركة رجل الفراش دون الحب؟ احتفظت أمي بكبرياء داخلي منعها من منح جسدها للرجل الوحيد الذي أحبته، كيف استطاعت ذلك، هل أدركت أن هذا الجسد خانها بما يكفي لتشعر بالغربة عنه؟

لم تصارحني، ولا تحدثت لجدتي عن مغامرات أبي النسائية.

لماذا صمتت هذا الصمت المخيف؟

ماتت أمي وبقيت إلى جانبها أطوقها بشدة. الآثار الزرقاء المنتشرة في جسدها منعتني من البكاء.

اجتمع عدة رجال حتى استطاعوا فصلي عن جسدها، وفي اللحظة التي أحسست فيها بانفلات يدي عن خصر أمي، بدأت أرفس وأجعر وأخبط ما يحيط بي.

الأسود يأخذ أمي، المياه الكالحة التي رسمت فوق خدي وصدري لغة مبهمة من الصراخ، تدفقت من أنحاء جسدي كله.

عضضت الأيادي الممسكة بي.

عويت مثل جراء الذئاب،

ابتعد الجميع عني، وألقيت بنفسي فوق جسدها ثانية.

عدت للعواء، تمنيت الذوبان والدخول في تفاصيلها لأنتهي معها في قعر العالم. حيث الهدوء. الأيادي أمسكت بي ثانية، ودخلت في دوامة الغيبوبة.

في صباح اليوم التالي عرفت أن أمي لم تعد موجودة فوق الأرض.

لم أستطع الحراك، رجلاي لا أحس بهما، وأصوات ضجيج تغمرني. على وجهي حفرت خيوط الدمع خيطاً مالحاً حارقاً.

الخواء وحده أمامي.

عندما دخلت جدتي، تعالت شهقاتي، أخذتني في حضنها وارتمت في فراشي. نامت في حضني، ونمت على صدرها.

كانت شهقاتنا ودموعنا تعلو وتهبط، نتعب قليلاً، نهدأ، ثم نعود لنوبات البكاء. آخر الليل، أنهكنا، وقامت جدتي من السرير. جلست بهدوء وأشعلت البابيب، ونظرت في عيني ثم همست: قتلها أبوك، هذا الفلاح القاسي.

كتبت في روحي: أبي قاتل، سأعاقبه بقسوة.

جحظت عينا جدتي وعادت للبكاء.

طلبت من أبي السماح لها بأخذي معها إلى اللاذقية، لكنه رفض بشدة وأجابها بفظاظة:

- يمكنك البقاء معها لعدة أيام، البنات لا ينمن خارج بيوتهن.

لعنته جدتي ولعنت أولادها الذين انتشروا في أوربا تاركين أختهم تموت بين يدي فلاح وحش. أخيراً تمتمت باكية:

- لو كنت حياً يا فادي..

أضاء وجه خالي المكان، وتمنيت لو يمسك بيدي كما كان يفعل دائماً..ونرحل.

فادي خالي الأكبر، وأكثر الناس محبة لي، مات منذ سنوات. دخل السجن بسبب عشقه للسياسة. حصل ذلك بعد أن عاد إلى بلده ليغير وجه التاريخ كما قال. قضى عشر سنوات في باريس، ولكنه بعد سنة من بدء تدريسه مادة اللغة العربية في جامعة دمشق، اعتقل، وتم التعتيم على أحواله. خرج بعد سنة من السجن، راح يروي لي حكايا كثيرة عن مدن بعيدة، ممتلئة بالغرائب التي كنت أفكر أنها غير موجودة إلا في الحلم فقط، ويردد على مسامعي أنني يجب أن أكبر سريعاً وأذهب إلى العاصمة، دمشق. في دمشق، كان يقول، تستطيعين أن تطيري إلى جميع أنحاء العالم. فقط ضعي رجلك على عتباتها لتشعري بسعة العالم وضرورة اكتشافه. حدثني عن حارتها القديمة وقصصها السرية، وشعرائها اليائسين، وتاريخها العتيق، وفتياتها اللواتي عشقهن، وياسمينها الذي يصادفه الإنسان أينما اتجه. كانت دمشق تبدو مثل حلم بعيد.

ملت خالي بعد أسبوع من خروجه بسكتة قلبية مفاجئة، وكأن قدر عائلتي أن تموت عن طريق القلب. جدي وخالي وأمي. بعد موت خالي بشهر، غادرت زوجة خالي الفرنسية البلاد، ورحلت إلى فرنسا حاملة في أحشائها حفيداً لن نراه أبداً، ووضعت ممتلكات خالي تحت تصرف جدتي وأمي.

الكنز الوحيد الذي داعب مخيلتي من تلك التركة هو المكتبة واللوحات، والتماثيل البرونزية التي جمعها خالي من مختلف أنحاء العالم.

* * *

على إيقاع القطار المسافر إلى دمشق، رحت أطلب الغفران من تلك التماثيل واللوحات الكبيرة، التي لم أستطع حملها في حقيبتي الصغيرة. تركتها في الخزانة العتيقة هناك، حيث ما تزال ثياب عائلتنا معلقة، تماماً كما رتبتها أمي. لقد تركها أبي على حالها. أقفل عليها ومنع أياً كان من لمسها.

ترى، هل ما تزال معلقين داخل تلك الثياب، أنا وأمي وأبي وأخي علي، خائفين من افتضاح أمرنا، نتأرجح داخل الخزانة، وضحكاتنا ترن بين جدران الخزانة الخشبية؟ الأريكة القرمزية التي ورثتها جدتي عن أمها، كانت قطعة الأثاث الوحيدة التي احتفظت بها أمي من بيت اللاذقية. تلك الأريكة تحولت إلى موطئ لأقدام ضخمة وغليظة خلفتها ورائي.

بعد رحيل أمي بأسابيع، تحولت إلى سيدة البيت الوحيدة.

دخلت عالم الأنوثة، وكان علي نسيان أشياء كثيرة. تحولت فجأة إلى امرأة بمقاييس وضعها البشر على مر مئات السنين.

بين يوم وآخر طلب مني أن أكبر عشر سنوات أخرى. وكان الأمر أصعب من توقعاتي في ظل الظروف الجديدة التي أحاطت بأبي. لم أنس أنه قاتل.

كانت يومياتي متشابهة.

أستيقظ مبكراً وأعد القهوة لأبي، ألقي تحية الصباح عليه. أضعها أمامه دون النظر في عينيه. أنهي أعمال البيت والتنظيف. أبدأ إعداد الطعام. نأكل. أنظف الصحون. أهتم بشؤون أخي علي، وقبل أن أنام، أكمل ما تبقى من أعمال المنزل. أفعل ذلك بصمت. أبي أيضاً يتحرك في البيت بصمت، والصوت الوحيد الذي كان يعلو هو صوت علي.

صار يعاملني كأنني أمه، رغم أني لا أكبره سوى بسنة واحدة. يطلب الطعام بإلحاح، ويبكي أمامي إن لم أنفذ طلباته. يلعب مع أولاد الضيعة وأولاد عمومتي.. ويتشاجر معهم. ولأني لم أكن أملك حزم أمي، وصرامتها، بل كنت فتاة حالمة وشاردة، غص البيت بالفوضى. صار أعمامي موجودين بشكل دائم في بيتنا مع زوجاتهم وأولادهم، وكأن وجود أمي السابق هو من منعهم عنا. عرفت أنهم لم يحبوا أمي يوماً من الأيام، ليس لأنها مسيحية فقط، بل لأن أمي لم تستطع التخلي عن عادتها الخاصة بها والتي كانوا يرون فيها نوعا من الاستعلاء والغرور.

أصبحت الصفة الغالبة على تصرفاتي هي العشوائية والذهول. طرح أعمامي فكرة زواج أبي، وصار يردد على مسامعنا ضرورة وجود امرأة تعتني بنا. لم أظهر أي انفعال أمامه، ولكني كنت كل ليلة، وقبل أن أغفو، أصلي مع روح أمي أن يخلصنا من وجوده، وقررت إن تزوج الهروب من البيت. وفكرت أن أذهب إلى بيت جدتي التي لم تعد مطلقاً إلى بيتنا بعد موت أمي.

اتصلت ببيت جدتي، وعرفت أنها أجرت البيت وسافرت إلى ألمانيا، إلى حيث يعيش خالي الأصغر منذ سنوات. كيف تسافر جدتي دون السؤال عني؟ ربما لم تعد تتحمل ذكرى ابنتها، وعاشت معها كما عاشت مع روح جدي في عزلة عن الناس.

أحسست أنني فقدت آخر الأحبة من حياتي.

إنها الوحدة القاتلة.

* * *

تزوج أبي من سميرة، إحدى فتيات قريتنا (عين الديب)، وجدتها وأخي فجأة أمامنا في البيت، دون أن يكلف أبي عناء طلب موافقتنا. نامت في سرير أمي، أخذت تصدر الأوامر لنا، وتطلب مني القيام بمساعدتها في أعمال المنزل.

كان وجودها بيننا أشبه بهبوط نيزك سريع فوق أرض يباب.

صورة أمي ورائحتها سرعان ما غابتا عن فضاء المنزل، وكانت أولى مفردات حياتي التي خرجت بها من بيتنا هي الجليد الذي يغلف حميمية الناس وعلائقهم. الرجل الأكثر قتامة في لوحتي السوداء، قرر وجود امرأة جديدة في بيتنا. جعل منها أماً لنا، وتصرفت هي على نحو مرضٍ ونبيل كما يليق بزوجة رجل ذي عائلة وأصل. من جهتي عاملتها كأي قطعة أثاث. أبتعد عنها حالما أرها، وأنظر إليها باشمئزاز وكأنها تنتمي إلى عالم أدنى وأكثر قذارة. وفي المقابل بادلتني الكره المتعارف بين زوجة الأب والابنة. ولم أكن لأحلم بالدخول في مرحلة حلم السندريلا. هوسي الوحيد هو الرواح إلى أمي واللحاق بها.

ذات يوم انفجر حقدي على زوجة أبي بعد أن رأيتها تضع في يدها سوار أمي. جن جنوني وبدأت أصرخ وأبكي. استغرب أبي تصرفي وبكائي، صرخ في وجهي وطلب مني الدخول إلى غرفتي والالتزام بالصمت وإلا كسر رقبتي. امتثلت لأوامره دون مناقشة، وقررت أن أسترد سوار أمي بأي ثمن. وبعد مراقبة طويلة لسميرة رأيت السوار موضوعاً

على الكومودينا في غرفة النوم التي تخصهما. أخذت السوار بيد مرتجفة، فتحت الباب وخرجت من البيت راكضة في اتجاه المقبرة.

مقبرة عائلتنا تبعد مقبرة القرية مئات الأمتار، وهي محاطة بسور عال. قبر أمي في القسم الأيمن. والورود التي أعودها يومياً وأسقيها تبدو وحيدة، وسط شواهد القبور الرخامية الجافة. في كل مرة أزور قبر أمي أتخيل أنها ستنهض وتلقي تحية الصباح. الطريق إلى المقبرة ضيق، ترابي، تحيط به أوراق القصب الحادة، التي تحتك ببعضها وتصدر زعيقاً غامضاً يجعلني أرتجف وأتخيل أن الأرض ستنشق عن مارد كبير يخطفني بعيداً.

دخلت المقبرة. غمرني لأول مرة شعور بالسعادة. نبشت قبر أمي، كان شبيهاً بها. ناعماً وصغيراً، لم يأخذ من الأرض مكاناً كبيراً، والصليب الذي وضعته جدتي على القبر، كان مرمياً أمامه. كل يوم أعيده إلى مكانه وأنا أسقي الزهور، وفي اليوم التالي أجده مرمياً أمام القبر، أعدت الصليب إلى مكانه، واقتلعت الورود التي كنت زرعتها، ثم دفنت السوار في حفرة عميقة، وأرجعت الزهور إلى مكانها. سويت التراب، ثم سقيت الورود وكأن شيئاً لم يكن. الصليب المرفوع فوق رأس أمي بدا مائلاً، ثبته بشكل جيد، وهمست: نامي بسلام كما عشت دائماً.

اكتشف أبي اختفاء السوار. عنف سميرة بشدة وقال لها: هذا السوار يشتري عائلتك كلها.

شعرت بالفرح وتلذذت بالدموع التي راحت تنهمر من عيني سميرة. وهكذا رحت أتفنن في اختراع المقالب التي تزيد من إرباك أبي وزوجته. صارت تفهم ألاعيبي وتأخذ الحيطة مني، وتلجأ للهجوم مخافة أن تفاجأ بمقلب جديد. في هذه الأثناء قمت بصناعة علام جميل في غرفتنا أنا وأخي علي. انتبهت للمرة الأولى أن علي يشبهني، وأني لا أزيده سوى بحمل البطن، وأنه على أعتاب الشباب. حاولت جعله أكثر قرباً مني، لكنه ظل يفضل على الدوام اللعب مع أولاد عمي (الشراشيح) كما سميتهم. طلبت منه أن يساعدني في صنع رفوف خشبية لغرفتنا. أبدى اندفاعاً كبيراً، وشمر عن ساعديه وهو يقول: أنت أختي وأنا مسؤول عنك. ضحكت لجملته الغريبة، ولم أعرف أن رجلاً بدأ يكبر في داخله.

نشرت بين رفوف الكتب لوحات خالي، ووضعت التماثيل والمنحوتات بين الكتب. أما زهور عباد الشمس التي كانت أمي قد صنعتها بنفسها من القماش، فوزعتها على الحيطان

بواسطة لاصق شفاف. طلبت من أبي أن يشتري لنا سجادة زرقاء، وأتيت بطرحة عرس أمي وجعلتها على شكل وردة ووضعتها فوق رأسي. خالتي سميرة صارت تخاف من دخول الغرفة، خاصة بعدما جاءت ذات مرة بغتة ورأتني أشعل البخور وسط الغرفة وأتمدد شبه عارية على سريري وأطلق أصوات شهيق وزفير عالية. كنت أطبق الكثير مما أقرأه حول تعالي الروح على المحسوس المادي، الروح التي قرأت عنها الكثير وسمعت الحكايات التي تجعل من الجسد رحلة مؤقتة لصعود الأرواح البشرية نحو خلاصها..

أغمض عيني، وأتخيل الجحيم وأرواحه المعذبة والضائعة. الجحيم المختلف عن التصور البشري، بعيداً عن النار والشياطين.

التيه في النور. هكذا أسميته.

أكثف روحي، فأفقد إحساسي بالمحيط وينتشر الظلام أمام عيني، وأركز على هسهسات الدماء في عروقي. أنصت إلى تلك الكلمات التي كانت تمر أمامي خارجة من أشعار شيوخ وأئمة كانوا على الدوام مرجعاً لي في حياتهم ورؤاهم. شهقت خالتي وهربت من الغرفة، ولم تجرؤ على دخولها مرة أخرى، وكثيراً ما عبرت عن خوفها من السحر والأرواح الشريرة، أمام زوجات عمي وبناتهن اللواتي رحن يؤكدن لي ضرورة الانتباه لنفسي أكثر والاعتناء بمظهري لأني البنت الوحيدة لأبي. وعلي الاهتمام بنفسي كما يليق بفتاة على أعتاب التحول غلى امرأة.

بدأ أبي يعيش حزناً غريباً.

لم أفهم في البداية سبب حزنه. يدخل إلى غرفتي ويسألني إن كنت في حاجة لأي شيء، وإن كان يلزمني مدرسون ليأتي بهم إلى البيت. أرفض كل ما يحاول القيام به، لأجعله يشعر بعدم أهميته بالنسبة لي. كنت أتمنى لو يدخل إلى غرفتي مرة ويأخذني بين ذراعيه، لأعود طفلة صغيرة. تمنيت أن يهمس لي بكلمات حلوة ورقيقة كما كانت تفعل أمي في زمن الطفولة. ظلت الصورة الوحيدة العالقة في ذهني هي التي تركها على جسد أمي، الكدمات الزرق وأناتها في طيات الليل.

الحنان والاهتمام، واللغة الصافية التي خاطبني بها أبي بعد زواجه، كانت نتيجة لمرضه. لقد أحس باقتراب الرحيل، وظلت الفرصة أمامه، ضعيفة، فقد تعرفت على سالم، ولاقيته ليلاً، وانتشرت الفضيحة.

أحرق أبي كتبي وروحي.

لم أدع له فرصةً للدخول في مرحلة الحنين إلى الحياة الماضية التي هربت دون عودة. طالعةً نحو شمس سوداء، وهابطة نحو العدم في ارتحال شبه مؤقت لحزن زرعته في قلبه قبل دخوله في الغياب.

مرحلة مرضه الأولى بدأت هادئة. لكن ما حدث معي بعد ذلك عجل في موته. الحريق، وفضيحة الليل، ورفضي الزواج، وأخيراً ذلك الانكسار الخفي أمام أعمامي وهو ملقى على الفراش. كل ذلك جعل يديه حطبتين يابستين خلال أشهر.

جرى الزمن سريعاً بالنسبة إلي.

وتوالت الحوادث مثل شريط سينمائي سريع.

* * *

أخيراً مات أبي.

اختفى بهدوء، كأنه لم يكن يوماً.

أغمض عينيه ونام، وكل من حولي اعتبرني المسؤولة عن موته. لأنه عندما دخل غرفتي ذات يوم وطلب مني أن أجهز نفسي لعرسي، وقفت كالمذهولة أمامه، وأنا أفكر كيف أنه قرر كل شيء نيابة عني، همست بهدوء وأنا أتحاشى النظر إليه: سأقتل نفسي قبل أن يحدث هذا.

انصرف بهدوء ودخل غرفته، بقي في السرير بضعة أيام، ولم يسمح لأي طبيب بالاقتراب منه، كان عمي الكبير من يسمح له بالدخول عليه، وكان آخر من رآه، وعندما خرج من غرفته ذلك النهار، نظر إلي بغضب وقال: يا مغضوبة.

إنه رحيل قسري آخر، لعبة اختفاء جديدة في حياتي. لماذا توقف قلب أبي فجأة، مثل أمي؟

ربما هي دعواتي. بكيت طويلاً، وأنا أرى التابوت الخشبي، يخرج من الغرفة، الزحام الشديد والسيارات التي اكتظت بها القرية، ونشيج أخي علي، كل ذلك جعلني أشعر بموته، وأبكي بحرقة. وكان بكائي نوعاً من الإحساس بالذنب تجاهه. اقتنعت ساعتها أنني السبب وراء موته. لقد قتلته! هو قتل أمي. هل كان يعرف برحيله، وأراد أن ينام بهدوء، ويرتاح من تصرفاتي التي لم تسبب له سوى الأذى؟

العريس المنتظر كان الابن البكر لعمي. حاول مراراً مغازلتي، ولمس جسدي. كان يبدو كالصبي الجائع إلى قطعة حلوى. كنت أنفر منه، أكرهه، فهو يفترس جسدي بعينيه كلما لاقيته. سافر سالم وتركني مرمية بين الجدران وحيدة. ما تركه رسالة يحثني فيها على طاعة عائلتي لأني أكثر هشاشة من المواجهة. إضافة إلى الرسالة، ترك أيضاً عنوان أحد الأصدقاء الذين يثق بهم ثقة مطلقة في دمشق. ذكرت له في رسالتي التي بعثتها مع أخته، أنني سأرحل إلى هناك، بعيداً عن العائلة. ولم ينس أن يذكر لي أن هذا الصديق ملاحق من الدولة وأنه ينتمي للحزب الذي تركه هو ولم يعد مؤمناً به، وأن الحذر ضروري جداً، فالحياة ليست قصة في كتاب، كما ذيل رسالته.

لم يبق لي أي شيء.

أمي، جدتي، أبي الذي قتلته بدعاءاتي الليلية المستمرة، سالم تركني وترك أهله وحزبه، وغرق في الظلام، موغلاً في تفتيت الروح وانشطاراتها. لم يقل وداعاً، لم يطعم شفتي قبلة، أنا من حلمت دوماً بقبلاته. ظل سالم يراوح في مكانه منتظراً قدرة إلهية ليتغير الزمان والمكان، قدرة يستطيع منها النفاذ إلى تقاليد عائلتي وإثبات وجوده كرجل أمام عنجهية أبي. بعد أن أحس بخواء انتمائه اليساري، وبزيف أحلامه كما ردد أمامي مراراً، لم يبق أمامه من مفر، إلا ترك البلد.

أحببت سالم وغموض حياته وانهزاماته المتكررة التي لم تقف عند حد. فتنني الحزن الذي صفعني أول مرة رأيته فيها. كان متأبطاً كتبه الصفراء وهو يبتسم لأخته أسيمة، رفيقتي في المدرسة. هزني الجنون وأنا أراه يومياً عند الناصية منتظراً مروري أمامه في طريقي إلى المدرسة. الرسائل اليومية عن قصص الحب التي صنعت تاريخ العالم وجعلته أكثر جمالاً. اللقاءات السريعة لالتماعات أعيننا. تخيله في أحلامي يقوم من البحر، هناك، بعيداً، حيث مشى يسوع يوماً، ليصنع المعجزات ويختفي مع النور في المجرات، ومع الأرواح النورانية.

نور طفلة السماء، رسمته في مخيلتها. اعتقدت أنه لو اقترب منها، وحاولت لمسه، لتبدد وتلاشى مثل غيمة هاربة. في إحدى المرات، وبعد زمن على توهج قلبينا، استطعت ملاقاته في بيت صديق له. كنا وحيدين، وكنت مغلق،لكنني اندفعت إليه بتوق اعتقدته يختصر أشواق العشاق جميعاَ. حلمت طويلاً بذلك اللقاء، الذي أنزلني سالم فيه من غيمات التوهج إلى

صحراء مترامية السراب. ضمني إلى صدره وبدأت أحس التيه في جسده. ولكني فجأة وجدتني مقلاة على السرير أخنق رغبتي، بينما هو يسوي انتفاخ بنطاله، ويطلب مني الإسراع في الرواح، هامساً: أريدك زوجة لي، علينا التريث وعدم التورط.

لم يحلم الرجل الأول في لغتي إلا بالهروب.

ولم أحلم سوى بالطيران بعيداً عن الأرض.

لذلك ظلت رجلاي تبحثان دوماً عن رصيف البداية.

* * *

ابن عمي محمد كان، بالنسبة إلى عائلتي، هو النبي المخلص، لأنه وافق على الزواج بي وأنا على هذه الحالة من العار والفضيحة. في الضيعة ضبطته مراراً يتلصص علي، وأد أثناء محاولاته الكثيرة للتقرب مني أنه سينالني مهما حدث. رجل دمث، خبير بأمور النساء وذو وقار بالغ. يملك من الأراضي وبساتين الليمون المنتشرة في السهل الساحلي ما يمكنه من العيش كأمير. لم يستطع سابقاً جذب انتباهي، وقد وجد الفرصة سانحة ليعبر عن شوقه القديم ويظهر كبطل أمام أفراد العائلة.

مات أبي وأنا حبيسة غرفتي.

تركوني وحيدة مع خيالات عائمة وخطط وهمية أقوم بإعدادها للهروب من البيت وتحطيم كبرياء والدي.

بعد موت أبي بأيام، لم أغير مخططي للهروب، دخل ابن عمي محمد إلى غرفتي ورآني غارقة في ذهولي. أغلق الباب وراءه، ولم ينطق بكلمة. وجهه المتجهم، وعينيه الفائضتان على خديه، وحواف النعاس على وجهي، كل ذلك أخافني وجعلني أصرخ وأحتمي بلحافي. قام من مكانه ليخرج. لكنه، وقبل أن يغلق الباب، قال: رحيل والدك لن يغير في الأمر شيئاً، سأعمل على تنفيذ وصيته في أقرب فرصة. كنت غائمة، بلغات غير مفهومة، ودقائق أسعى لهروبها من شتاتي. بدأت أفكر أنه علي انتهاز الفرصة كي أتمكن من الخروج فيها، استعداداً للرحيل الذي سينقذني من التحول إلى كائن هلامي.

استغربت عدم حضور علي إلى غرفتي. خالتي اختفت أيضاً.

لم أعد أرى سوى ابنة عمي وعمي وابنه العاشق. كل ما في ذهني نقاط متوهجة، لكنها واضحة: الهروب، سوار أمي، عنوان الرجل الغامض المختبئ في أزقة دمشق بعيداً عن

البشر. قام محمد بتحرك واسع لمعرفة أدق تفاصيل حياتي. وذات يوم فتح باب غرفتي ودخل هو وأبوه في حالة هياج. كانا صامتين. اقترب محمد مني وأمسك شعري. صفعني على وجهي فتهاويت على الأرض. أحسست أن عظامي تتهاوى وتتفتت. عاد للإمساك بي وصرخ: أين كنت تذهبين مع ابن الحرام ذاك. إلى أين؟ عند الصخور البحرية؟ ما الذي كنتما تفعلانه؟

إذن.. لقد عرف محمد بلقاءاتي البحرية مع سالم.

بدأ بضربي. ثم اشترك أبوه معه.

نجوم حمراء وصفراء وخضراء، تلمع وتختفي في الهاوية. شبيهة بنجوم العيد التي كانت تشعلها أمي، لكنها نجوم سريعة الانطفاء، والاشتعال. نجوم مالحة في عز النهار.

الفردوس المفقود لطفولتي، وسحر غناء أمي قبل النوم، شجعاني على الصمود وعدم الصراخ. حتى الأنين خنقته في صدري. جسدي الملقى أرضاً والمترنح تحت نعالهما، ظل ينوس حتى الذبول والغيبوبة. لمحت عيني طاغور، عجوزي الذي اختفى ثم عاد للبقاء بجانبي.

عجوزي العائد كان معلمي الأول الذي جعلني أعرف الله وأدرك شكله وحقيقته في قلبي.

الحقيقة التي جعلت مني امرأة تحلم بالجمال والعدل

* * *

رائحة نتنة تفوح من المكان. الرائحة مألوفة. رائحة المخزن الكبير، الذي يخص عائلتنا، والذي اعتاد أعمامي تخزين بالات التبغ فيه عشرات السنين. يكفيني المرور أمامه واستنشاق تلك الرائحة، حتى أصاب بالرهبة والخوف من الوحش الذي سيخرج من ظلامه ويخطفني إلى جزيرة الساحرات الشريرات. فتحت عيني، وألفيت الظلام شديداً. فتحتهما ثانية، الظلام نفسه، هل عميت؟ هل هو كابوس؟

أنا مرمية في المخزن إذن، وسط بالات التبغ، يلفني الظلام وتلعب بين أصابعي الحشرات الغريبة والجرذان. حاولت النهوض، فأحسست ببطني يتمزق، وظهري ينشطر. هدأت وأنا أحاول تحديد ملامح المكان.

لم يخطر في بالي يوماً أني سأكون داخله وفي ليلة مظلمة، خاصة أن عائلتي لم تعد تستخدمه بعد أن تراجعت زراعة التبغ في السهول الساحلية. والمخزن أشبه بقلعة قديمة. صوت ما يقعقع، وخشخشة، وقع أقدام حذرة تقترب. صوت صرير، وضوء خافت يضيء المخزن. استطعت تحديد مكاني، فأنا مرمية بين أكياس خيش، ومعاول صدئة، وبقايا تبغ متعفن. اقشعر جسدي، وتراجعت أحتمي بالأكياس من القادم. أغلق الباب، واستمر الضوء يبحث عني. همس الصوت: نور!!

إنه صوت محمد. تنفست الصعداء، وتدفق الدم من بين فخذي الدم. إني في حالة حيض. الأوجاع في أسفل ظهري. اقترب محمد، ووجه ضوء البيل إلى وجهي، غطيت وجهي بكفي وكنت مثل حشرة خائفة.

همست: ما الذي تريده؟

لم يجب، وألقى البيل جانباً، ثم فجأة ارتمى على جسدي، وكمم فمي بيده، هامساً بحقد:

- هل.... الغريب أطيب؟

أردت أن أنشج، أن أصرخ. إنني أغتصب. ومحمد لم يكن يهمه من الزواج بي إلا تلك اللحظة التي سيخترقني فيها.

أدرك أنه لن ينالني إلا بهذه الطريقة. عرفت أن لا مفر من الحركة أمامه بعد أن كمم فمي، وألقى بثقل جسده علي. استرخيت بين يديه، فبدا أكثر ثقة باستجابتي له. بدأ يبحث عن سروالي. ومد يده نحو ردفي. وقد شعر بالأمان. الوقت مناسب الآن، فكرت. كانت يده تبتعد عن فمي، وجسده أكثر خفة. انتفضت ورفسته على خصيته، وانزلقت من تحته. خار كالثور واضعاً يديه على عضوه. بصقت عليه وأمسكت البيل وركزت الضوء عل عينيه، وبهدوء قلت: اخرج قبل أن أصرخ عالياً. خرج بسرعة، حتى أنه لم يلتفت إلي، لكنه وقبل أن يغلق باب المخزن ويقفله ثانية، قال: إذا أخبرت أحداً، سأذبحك كالكلبة.

خرج وتدفقت دمائي، وهويت إلى حيث الفئران والحشرات.

ممددة على فراشي، والدم اليابس يغرقني في بركة من العار والخجل، أفقت صباحاً، ووجدت زوجة عمي مستاءة من هذه العروس الهزيلة التي لا تعرف أدنى قواعد الأدب والأخلاق والنظافة، كما هو واضح بنطلوني المبقع بالدماء. أردت الاستحمام، وطلبت رؤية محمد، وأخبرته أني أريد الزواج منه في أقرب وقت ممكن، ولكن علي تهيئة نفسي أولاً. لم

يصدق ما سمعه بداية، لكنه، أثبت في الأيام التالية ولاء لي، ولرغباتي المتتالية في الـــذهاب غلى السوق وشراء الحاجيات الكثيرة التي لم أكن أدرك أصلاً لم أشتريها. كنت أحاول كسب أكبر وقت ممكن، وبدأت أتحين الفرص للذهاب إلى المقبرة ونبش السوار من تحت الأزهار، وهو ما حدث في أحد الصباحات. عندما طلبت من عمي السماح لي بزيارة قبر أمي.

في تلك الأثناء تطوع أخي علي للخدمة في قوى الأمن الداخلي، ولم أعد أراه مطلقاً.

آخر مرة رأيته فيها، لم يتجاوز الدقائق. طلب مني الامتثال لأوامر عمي لأنه بمثابـــة والدي. رجوته أن يبقى لنرحل عن هذه القرية. لم يجب، وانسجب بهدوء.

نزلت إلى المدينة بحجة شراء بعض الأغراض النسائية التي ستلزمني للعرس.

في المدينة توجهت إلى المحطة دون تردد. قطعت تذكرة سفر إلى دمشق، في قطـــار الصباح. وقت مناسب جداً.

عدت إلى البيت.

سألني محمد عن الأغراض التي اشتريتها.

أخبرته أنها بعض الملابس الداخلية، وسأكمل شراء الباقي في الأيام القادمـــة. قـــال احرصي أن يكون لونها أسود وخمرياً.

لم أجبه.

غرقت في صورة دمشق التي رسمها لي خالي ذات يوم.

الفصل الثالث

شمس دمشق تشبه تفاصيلها، حادة، مثيرة للحب، ومؤلمة. آخر الطريق، وبداية النهايات، وخطوة جديدة نحو الموت.

الركاب ينزلون بلا مبالاة، ويسقطون في جحيم التفاصيل اليومية للحياة، ثم يتفرقون إلى هاوية المدينة.

كل ما سأفعله الآن هو الهروب نحو قصاصة الورق الصغيرة التي تحمل عنوان الرجل الغامض. وجهي الغريب ما يزال مثار التساؤل والدهشة، ونحولي المتزايد يتمايل مع تدافعات الركاب. ترنحت مرات وأنا أحاول الابتعاد عن الزحام. رأيت في عيون الفضوليين نظرات الشفقة والسخرية على هذه البنت الصغيرة المرتجفة، الشبيهة بالعصا الطويلة في رأسها كومة من القش.

كيف تخبئ الأرض في بطنها هذا الكم الهائل من البشر، وتبتلعهم بعد حين؟

وما الحكمة في هذا الوجود البشري المتزايد البشاعة؟

تساءلت وأنا أحاول إيجاد سيارة أجرة، هاربة من نظرات الفضول. يجب علي إظهار ثقة عالية بنفسي أمام الآخرين، فأنا الآن في دمشق، وحيدة، وعلي أن لا أدع هذه المدينة تبتلعني.

جئت إلى هنا كي أكون ابنة أمي، وامرأة مسكونة بالأحلام والحيوات الجديدة والغريبة، التي لم يعرفها الآخرون. أردت أن أبرهن لنفسي ولسالم، ولأبي الذي تحت التراب ولعائلتي، أن حريتي، حبة العنب المزروعة في قلبي، أنا الأنثى الصغيرة، لن تقوض ممالكهم، وستجعلهم ينتمون إلي. سوف أدلهم على معنى هذا الروتين الذي يعيشون بموجبه، وإلى أين سينتهي، وإذا كان لابد أن أعيشه، فليكن كما أريده أنا.

فرحت للفكرة وشرحت للسائق المكان الذي أريد الوصول إليه.

بدت دمشق مكاناً مناسباً للحرية.

تفحصت الزحام الشديد، والوجوه المتشابهة والكئيبة للبشر أثناء لهاثهم في الشوارع العريضة. كم تتوالى الوجوه، وكم تختلف؟ دققت في وجه السائق، لأعرف إن كان مطمئناً أم لا. هذا الحذر والخوف والخجل من الآخرين، رافقني طوال حياتي الماضية. فهل سيرافقني في حياتي القادمة؟ أمي بتربيتها الصارمة استطاعت تفتيت سعادتي بالأشياء الجديدة، ورسم اضطراب لون عيني حتى في أزمنة الفرح التي كانت تلازمني بين حين وآخر. تلفت حولي لأتأكد أن أحداً من عائلتي لا يلحق بي، وسألت نفسي. ما الذي يحدث في القرية الآن؟ ستقوم الدنيا وتقعد. هروب ابنة عائلة النمر!! يا للفضيحة التي سيغرقون فيها؟ ستجعلهم يدورون حول أنفسهم كالفئران. لقد قمت بما وجب علي القيام به.. وتصرفت كما ينبغي لفتاة حرة، مثلما وصفتني أمي دوماً.

ورود أمي فوق قبرها، نزهات جدتي البحرية، التي علمتني معنى الحياة، ورائحة أخي علي الذي اختفى فجأة، كانت كلها حنيني الأوحد إلى تلك العوالم البحرية في القرية. فاجأتني الدموع، وبلعت غصة في صدري، وفكرت أنه يجب أن أكون أكثر قوة. أيقظني صوت السائق وهو يطلب مني النزول، بكل حنان، بعد أن رأى دموعي:

- هذا هو العنوان يا ابنتي.

شكرته، ودفعت له أجرته، ونزلت أبحث عن ذلك الرجل (عادل الصوفي) كما قرأت في الورقة المهترئة. شممت رائحة سالم وأنا أبحث بعيني بين الحروف عن آثار أصابعه. قربت الورقة من أنفي، وددت تقبيل الحروف. لثمت الورقة، ورحلت نحو الحزن لم آلفه من قبل. لكن رغم كل حنيني. قررت محو صورة سالم من ذاكرتي، والحبو في اتجاه المجهول.

نزلت من السيارة، ووجدت نفسي فجأة وسط كومة متراصة من الأحجار، والأزقة الضيقة. كيف سأعرف المكان بالتحديد؟

وقفت ذاهلة وحقيبتي تلتصق بصدري. البشر يروحون ويجيئون أمامي وكأنهم لا يرونني. النساء هنا يتلحفن السواد، أعينهن جميلة. أعدت قراءة العنوان. الزقاق الثاني بعد سوق الخضار. البيت الثالث على اليسار. عنوان واضح، وكل ما علي معرفته. أين يوجد سوق الخضار.

أمامي مباشرة توضعت بضع عربات خضار. لا بد أنه سوق الخضار المفترض.

تجاوزت الزقاق الأول، ودخلت الزقاق الثاني. الآن، البيت الثالث على اليسار. توقفت أمامه، كان الباب الحديدي أسود، ومزين بعدة ورود بيضاء. ورود حديدية غريبة. ثم ساحة واسعة ذات أرضية رمادية، توزعت فيها عدة غرف بأبواب ذات ألوان متباينة. هذا ما كشفه الباب حين فتحته.

طرقت أحد الأبواب. خرجت فتاة نصف عارية، منكوشة الشعر وتدخن يبغاً ذا رائحة كريهة. سألتها عن عادل الصوفي. تفحصتني بفضول، وخرج من فمها صوت عال وثخين:

- أنت أخته الصغيرة؟ قال أنك ستأتين..
- نعم أنا أخته.
- تلك غرفته، بابها أزرق.

اقتربت مني، فتراجعت إلى الوراء. شكرتها بعجلة ثم اندفعت نحو الباب الحديدي الأزرق. استغربت لونه، ففي هذا الحي المعروف باسم (الحجر الأسود) كان من الغريب أن يجد المرء لوناً ضاحكاً على هذا النحو. خمنت أن الرجل الذي يسكن في هذه الغرفة يعرف كيف يعيش، وربما هو ابن بحر مثلي. تسارعت دقات قلبي وأدركت أن الرجل الغامض هيأ المكان لوجودي، وهذا يعني أن سالم كان متأكداً من هروبي. لقد اتصل به على ما يبدو.

طرقت الباب طرقات خفيفة وعدت إلى ارتجافي. أغمضت عيني محاولة أن أبدو فتاة قوية أمام هذا الرجل ذي التاريخ الغامض، والحاضر المغامر. شق الباب وظهر رجل طويل، أسمر، ذو شعر فضي، يحمل في يده كتاباً وتمسح عينيه غيمة خريفية.

قلت بصوت خافت:

- مرحباً، أنا نور..

بدا مذهولاً وهو ينظر إلي. تفرس في عيني. وبسرعة شديدة جذبني من يدي وأدخلني إلى الغرفة. أغلق الباب وهمس قائلاً:

- هل مشيت إلى هنا وأنت بهذه الشاكلة؟

أومأت برأسي بالإيجاب وأحسست بدوامة التعب تلفني. انتبهت إلى غرفته الصغيرة، مستطيلة الشكل، بجدران زرقاء كحيلة غريبة بعض الشيء. اعتقدت في البداية أني في مكان مسحور، فالأثاث كان غريباً. سجادة كبيرة بزخارف زرقاء، وعشرات الوسائد الملونة المتناثرة في أرجاء الغرفة، وفراش دائري بملاءة سماوية، وعلى الجدران تتوزع لوحات

كثيرة بحجوم مختلفة. في زاوية من الغرفة اصطفت الكتب والجرائد فوق بعضها البعض بطريقة فوضوية وطفولية. وعلى أحد الجدران كانت صورة كبيرة لرجل ملتح، وهو في الحقيقة يشبه إلى حد كبير مضيفي عادل الصوفي هذا.

تفرست في الصورة بشكل فضولي، متسائلة عن الزمن الذي التقطت فيه، ثم همست لعادل: تبدو أكثر شباباً في الصورة. حملق بدهشة وأطلق ضحكة مجلجلة، ثم شرح لي من يكون صاحب الصورة. إنه أر نستو تشي غيفارا.

هكذا فجأة، ومن دون مقدمات، ومن دون أن يحاول عادل الاستفسار عن أي شيء يخص حياتي، انهمك في ترتيب يومياتي.

* * *

عادل لم يحاول الخوض معي فيما سأقوم به.

ما زلت أشعر بالخوف والرهبة مما يحيط بي.

أتخيل دوماً أن أحداً ما من عائلتي سينقض علي ويذبحني وأنا وحيدة في فراشي. كان عادل يذهب إلى السوق يومياً وقبل أن أستيقظ، لأجد الفطور جاهزاً، ورائحة الشاي المحببة إلى قلبي تضفي على المكان أجواء أكثر سحرية وغموضاً. دهشت من حنانه الغريب، ورحت أهمس بيني وبين نفسي، بأن هذا الرجل، أشبه بقديس. فهو يمشي على الأرض محاولاً أن لا تلامسها قدماه،حتى لا أشعر بالخوف. وعندما يريد مني شيئاً، كان يهمس وكأنه يتكلم من أعماقه، متعمداً عدم تحريك شفاهه، فأتكور حول نفسي وكلي خجل من هذا الاهتمام المربك، والذي كنت فقدته منذ زمن البراءة. ذلك الزمن الذي مازالت عوالمه ترافقني حتى لحظات موتي المتقطع بين الحلم واليقظة، ورغم السواد الذي لون لحظات عمري الماضية.

غرقت في كوابيس من الهذيان والحمى لأيام عدة.

أصرخ بين يدي عادل بسبب كتب محروقة وأصابع بلاستيكية تغتصبني،

وأعضاء ذكورة تزحف ليلاً فوق جسدي في مخزن تبغ أسود حبست فيه، ثم اللهاث. اللهاث مخترقاً نبضي وخوفي غير المنتهي. أعمام يطاردونني فوق إسفلت الشوارع، وأب يلعنني تحت التراب ويدعو علي بعذاب مضاعف في حياتي القادمة بعد موتي الحالي، عندما ستسكن روحي جسداً آخر، فتأتيني الاجتماعات السرية وروائح اللحم المسلوق، وتمتمات

رجال كبار في السن بعمائم بيضاء، عليها مسحة من الجمود، يطلبون من أبي أن يلعن حتى التراب الذي أمشي عليه.

أفيق من الكابوس واللهاث يقتلني، أصرخ وأتكور في حضن عادل، الذي يلفني إلى صدره ماسحاً بيده فوق جبيني وهو يهمس: نامي يا صغيرتي، لننس ما حدث، لننس كل شيء.

أسمع بحة صوته، وأشعر بالأمان، فأهوي إلى حضنه، أتكور بين يديه السمراوين وأغفو.

في الصباح نفاجأ، أنا وعادل، بالوضع الذي نكون فيه. هو في مكانه نصف جالس، يضعني في حضنه وأنا أنام بسكينة، وفي الثانية التي كنا ننظر فيها إلى بعضنا، كان كل منا ينتفض مبتعداً عن الآخر بارتباك. تكرر الموقف مرات عدة، فصاح بي عادل ذات ليلة:

– عليك أن تتحكمي بأحلامك أكثر، لأن رقبتي ستتكسر وأنا أحملك كل يوم بين ذراعي. أنت امرأة شابة وعليك الاعتماد على نفسك، غداً ستذهبين إلى السوق لتشتري الخضار. قال وقطب جبينه، ثم تابع:

– ألا تهتمين قليلاً بنظافة الغرفة؟ منذ أيام وأنت متكورة حول نفسك كطفلة رضيعة، هل جئت إلى دمشق من أجل هذا؟ لماذا لا تعودين إلى بيتك وتكملين حياتك مثل البنات الأخريات؟

نطق بجملته الأخيرة ونام في الجهة البعيدة من فراشي على غير عادته، فإذا صدرت مني أنة، أو آهة كنت أراه يقف كالملسوع محاولاً معرفة ما أعاني.

في تلك الليلة، ابتعد عني، وغرقت في نشيج مكتوم تحت غطائي. لحظات، وأزاح الغطاء عن وجهي. نظر إلى عيني المحمرتين. رفعني قليلاً وكنت كوليد صغير بين يدي أمه: لا تبكي مما أقوله لك أو مما سأقوله في المستقبل. أعرف أنك تتألمين، وأعرف أنك فتاة شجاعة تدافعين عن حياتك وحريتك. ولكن الموضوع ليس هنا. عندما نكون أحراراً نصبح أكثر مسؤولية وتصبح حريتنا التزاماً. أنت اخترت أن تكون لك حياتك التي ترسمينها وحدك، بعيداً عن قيم العائلة والمجتمع، عليك إذاً أن تكوني مسؤولة عن هذا الخيار الذي هدمت من أجله كل ما يحيط بك، وإلا ستنتهين مثل كثيرات قدمن إلى هذه المدينة وابتلعتهن وحولتهن إلى مسوخ. مدينتنا تحب الأقوياء. وعندما تشعر بقوتك تجعلك تشكلينها كما تريدين.

في غرفة وليل طويل، وفي مكان هامشي على أطراف دمشق، أغمضت عيني، وأنزلني عادل الصوفي عن حضنه. قال هامساً: اليوم تغلبي على كوابيسك، عليك أن تهزميها.

لم أفتح عيني، بل أومأت برأسي وغرقت في النوم.

* * *

عادل الصوفي، الرجل الأربعيني الأسمر، ذو الجبهة الواسعة والشعر الشائب المسترسل على سمرته الخمرية. بجسده الضخم والشعر الكثيف الذي يسبح في فضاءات جسده ويتجمع في صدره كمروج من انحناءات السنابل الصيفية. عادل بشيبه الأربعيني وسمرته النادرة التي لوحتها الشمس بلمعان مثير. بقامته المديدة وتلافيف عروقه الزرقاء المنتشرة فوق تغضن جلده، كل ذلك هو ما يجعل منه رجل حياتي الأول.

رجل هارب من كل ما يحيط به، يبحث عن حلمه الصغير ويحاول ما أمكن نسيان انكسارات الروح والأزمنة والهزائم التي مني بها سنة وراء سنة. جاءت نور طفلة السماء لتجعله يشعر بأن هناك ما يجب أن يعيش من أجله. كان في الواقع أكثر حساسية ورهافة من احتمال ما يحدث، وفي النهاية لم يحاول أن يقف في وجه الاستمرارية التي لن تنتهي لهزائم زمنه ودخول ناسه وبلاده في نسيان وموت.

رجل قادم من زمن نسيه البشر في لهاثهم وهم يدخلون، بسعادة الفئران، إلى المصيدة.

ظل يهذي عن أزمنة الحرب والقنص والاغتيالات، وعن زمن الحب الميت في أزقة بيروت ودمشق، وعن ارتحالاته المستمرة من جحيم إلى آخر دون التوقف لاستعادة الأنفاس. أو حتى ليسأل نفسه، لم حدث كل ذلك؟ ولم ترك عائلته وبيته الدمشقي القديم الذي يلح على ذاكرته بالياسمين المتساقط فوق البلاط المربع، ولأنه كان الابن البكر لعائلته التي جاءت من الساحل واستقرت في المدينة، فقد استطاع أن يحمل في روحه نبض دمشق واتساع البحر، أحس على الدوام بمسؤوليته تجاه عائلته، بعد أن قضى والده عمراً وهو يناطح الهواء لأجله وأخوته، كان مثالاً للهدوء والكياسة، والاجتهاد، تعتز به أمه على الدوام بين جاراتها، وعلى الرغم من شغفه بالاقتصاد ورغبته بالسفر إلى خارج البلاد وإكمال دراسته في أوربا، إلا أن مرض والده المفاجئ وإحساسه بالمسؤولية نحو أخوته، وقناعته بضرورة وجود كبير يرعى

شؤون العائلة بعد غياب الأب، كل ذلك حفزه لإتمام دراسته في الطب. ولكنه وقبل أن ينتهي سنته الأخيرة، اختفى عن الحياة، ولم يعرف أهله بما حدث أو لم تصرف على هذا النحو.

عرفت أمه سبب اختفائه وصارت تتلقى أخباراً عنه. غرقت في السواد ثانية بعد السواد الأول الذي أعلنته على جسدها عندما مات أبو عادل. شعرت بالخوف يلاحقها بعد معرفتها أن ولدها مطلوب من قبل السلطات وأنه معارض للحكومة.

كان يقول لي: لم أعرف لماذا كنت منذوراً للهزائم، ولماذا سارت حياتي على هذا النحو المأساوي. المشكلة أني ما زلت على قناعة تامة بما كنت أفعله، ولست نادماً على شيء. على العكس تماماً ما زلت أرى أن الحياة لا يمكن أن تسير إلا على النحو الذي آمنت به، وإلا كيف سأعيش. لا أتخيل أن هناك وجهاً آخر للحياة، أعتقد أن الخراب كامن في مجتمعاتنا، وتحولاتها التي ستودي بها إلى الهلاك وستجعل منا شعوباً تقتات كل شيء. الطعام والثقافة والحياة، أستطيع أن أرى كيف يعود نيرون من جديد مشعلاً حرائق روما. أستطيع أن أتخيل الزمن الخارج من نفسه، والمتوالد في موته، ينسى وجودنا ولكنني يا عزيزتي لا أعرف إن كنت سأتحمل ذلك اليوم، أو سأعيش حتى أراه. كثيراً ما أفكر بأن أنهي هذا النبض حتى لا أرى ذلك بأم عيني مثل أي كلب أجرب يقعي في مزبل. أفضل الموت على ذلك.

كان مولعاً بالركض وراء أحلامه في نبوءة تحتل روحه وتلاحقه دائماً، وراء متاريس بيروت. حرب الاجتياح، وداع المقاومة وهي تغيب في البحر، ودوي القنابل في آخر الليل، صراخ وراء المتاريس وأجسادهم الممزقة التي كانت تأتيه في أحلامه على شكل قطعان من الزرافات. كان من أكثر الشباب المتحمسين للقفز بهذا الحلم الذي حمله رفاقه إلى أرض الواقع، وبقوا يحملون بتحقيقه حتى وهم داخل زنازينهم، أو هم مطاردون في المدن، ومنفيون في العديد من بلدان العالم. إنه من شلة متمردي هذا العالم، الأنبياء الصغار، المارقين، المتمرسين الذين جاؤوا في الوقت الضيق، حيث لا مفر من السقوط، ولا هروب من بداية تشكل مجتمعات لا هوية لها. كان من الطبيعي أن يغرق هؤلاء الأنبياء والمارقون في ليل لا نهاية له، بعد تجربة لم تستوف أي شرط مما كانوا يحلمون به. من بقي منهم في البلاد انقلب على نفسه، أو اعتكف مهزوماً، أو تحول إلى دونكيشوت معاصر.

وضع عادل مختلف.

بقي ملاحقاً ومتخفياً عن الأنظار، ولم تفلح كل المساعي لجعله يغير موقفه. انتهى كل شيء، ولم يبق هناك لا حزب والأنبياء، لكنه كان سعيداً بخرابه الفردي، بعد أن خرج من الحرب وحيداً، بلا رمح، كما سخر من نفسه دوماً، لكنه لم يستطع أبداً التخلص من الصور التي احتفظ بها أثناء هروبه، ولا كوابيس لبنان، التي حفرت في روحه معنى الهباء.

لاحظت في جسده ندبة عميقة احتلت منتصف رقبته، كانت تجعله في أيام البرد، ينتفض أماً، أخبرني أنها طعنة من عسكري لم يستطع تحديد هويته، بعد أن اختلط الحابل بالنابل في إحدى المعارك، على أحد الحواجز العسكرية. سخرت منه قائلة: ولكنك تعرف الحاجز أين يقع، ولأي حزب يتبع؟

- فعلاً، وكننا اكتشفنا بعد المعركة، أن المنطقة غرقت في الفوضى، واجتمعت هناك ثلاثة فصائل، ولم يستطع أحد تمييز العدو من الصديق، كانت مجزرة حقيقي.

صمت قليلاً واقترب مني:

- لماذا تبحثين عن الكآبة، ألا تشغل بالك أمور أخرى؟ لا تعودي للحديث عن تلك الحرب.

قال جملته، وخرج من الغرفة ولم يعد إلا والفجر يعلن بدء انطلاقته.

أول مرة يتركني أنام فيها وحيدة في الغرفة.

فتح الباب ورآني متجمدة في مكاني خلف غطائي، رجلاي ملفوفتان فوق بعضهما، ودمع مالح يحرق خدي. أطفأ النور، وهوى إلى حضني. لم أتحرك كم مكاني، ولم أنبس سوى بجملة واحدة:

- خفت عليك.

هوى جسدي إلى الأرض. تيبست أعضائي من الجلوس ساعات في انتظاره.

ثم دخلت مرحلة هواجسي المرضية.. كما سماها عادل.

هواجس عن وجود أحد أفراد عائلتي خارج الغرفة التي أعيش فيها. كنت أحس أيضاً أن شخصاً ما يلحق بي في تلك الأزقة الضيقة، الباعثة على الخوف. أنا على يقين بأن أحد أولاد أعمامي سينقض، بين لحظة وأخرى، على جسدي، وسأموت.

ذات يوم مضيت إلى السوق لشراء الخضار. في نهاية الزقاق على جهة اليسار، روائح أطعمة تفوح من نوافذ البيوت الحديدية السوداء، أطفال حفاة وشبه عراة ينتشرون على

أعتاب البيوت ومعهم أمهاتهم الحبالى، أو منفوخات البطون، أخريات حاملات أطفالاً رضعاً في أحضانهن، ناعسات يحملقن في وكأني لا أنتمي إلى عالم البشر. تجاوزت الزقاق، واتجهت يساراً إلى السوق. لوهلة أحسست بالشلل، قدماي تمتنعان عن الحركة، لأنه في الخطوة القادمة ستتمثل القرية كلها أمامي بأعمامي ونظرات سكانها. انتبهت إلى أنني أقف في منتصف الطريق، إذ دفعتني إحدى النساء لتشق لها طريقاً. شهقت بعمق وتخيلت آلاف النعال تدوسني، الأقدام تركلني. المرأة المسكينة أوقفت خوفي، وهي تبسمل وتحوقل و.. تصلي على النبي، ثم تكمل طريقها بلا مبالاة مع تمتمات تهكم.

عربات خشبية بائسة تتوضع فوقها أصناف شتى من الخضار. رجال ونساء ينادون بأصوات مبحوحة، خشنة حيناً وغليظة وباردة حيناً آخر. الخضار المصفوفة بعناية على العربات لم تكن طازجة، أغلبها مهترئ. والجيد موضوع على جانب، ثم باقي الخضراوات وعليه تسعيرة أغلى ثمناً. هذا هو سوق الخضار الحقيقي الذي ذكره لي سالم في عنوانه.

أصوات الباعة المخنوقة، ولونهم الأسود جعلني أتخيل نفسي داخل أحد الأفلام التي كانت أمي تحضرها لنشاهدها عن معاناة السود مع البيض، وعن مزارع القطن في أمريكا. وجوه هؤلاء الرجال شبيهة بوجوه أولئك إلى حد بعيد. بعض الأطفال الذين فرشوا بضاعتهم على الأرض، كانوا يرمقون المشترين بنظرات توسل، والنساء القليلات اللواتي جلبن ما لديهن من خضار، وفرشنها في أحضانهن الواسعة وتربعن على الأرض، بدين ملتصقات وثابتات على الرصيف مثل تماثيل.

اشتريت بضعة كيلوات من البندورة والخيار والباذنجان.

الضجيج والخوف، والزحام. حركتي واضطرابي ومخاوفي. غرقت باللهاث والعرق. عدت راكضة. هربت من خيالات رجال يلحقون بي. طرقت الباب بشدة، وانزلقت إلى عتمة الغرفة. تعجب عادل من تصرفاتي، فركض إلى الباب الخارجي وفتحه ليرى إن كان هناك من يلحق بي:

- هل آذاك أحد؟
- لا.
- لماذا تركضين إذن؟ ولم أنت خائفة؟
- خفت أن يراني أحد من عائلتي.

- عائلتك؟! الجن الأزرق لن يعرف مكانك، اهدئي، الأمور على ما يرام.

قال بصوت واثق.

- لماذا لا تحاول معرفة ما يحدث في القرية.
- سأحاول.
- كيف؟
- لا تقلقي. سأحاول هيا لنعد الفطور.

كيف تصرف أخي علي بعد معرفته بهروبي؟

هذا السؤال كثيراً ما يرتسم في خيالي.

ليس الخوف بالمعنى الحقيقي هو ما يحيلني إلى عائلتي، بل الألم الذي سأحس به عندما يتحول جسدي إلى كرة بين أقدامهم. كيف أصير دودة وهم يتقاذفونني كشيء لا معنى له، أو مثل خرقة تتهيأ للتلف. ذكريات المخزن وعضو ابن عمي المنفوخ تحت سرواله ودخان الكتب المحترقة ويد الطبيب وهي تغتصبني، كل ذلك رعب لا أحتمله. هذيان، حول أيامي إلى لعنة، وجعلني أغيب عن الفكرة الحقيقية التي جئت إلى دمشق من أجلها، فكرة حريتي وصنع حياة أردت البحث عنها.

إنني سجينة عوالم القرية والعائلة دون أن أدرك ذلك.

أسأل نفسي أحياناً، ماذا لو أن عادل كان رجلاً آخر، هل كنت لأكون ما أنا عليه الآن؟ آمنت إيماناً مطلقاً به، بنبراته، بغضبه، بفرحه وتشكيلاته التي لا تنتهي عن العبث والحياة التي تستحق أن تعاش. هذا ما حرض في تلك الرغبة لأنتصر على نور ابنة أمها التي وجب عليها التدثر بالملاءات والخوف.

لفتني رجولته. ليست الرجولة المتعارف عليها بالذكورة في مواجهة رغبة الأنثى في أن يكون لها ذكر يحميها، ولا قدرات الفحولة الجسدية التي تجعل من أنوثة المرأة سيلاناً من اللذة، ولا حتى الدفء القارص بين يديه. الرجولة التي لن أجد مثلها مطلقاً في حياتي، والتي جعلتني أشعر بأنوثتي، وحركة جسدي البارد الموطوء بتلك الأصابع البلاستيكية والنعال التي ما تزال ماثلة أمام وجهي. رجولة مرة، أشبه بجحيم. صعبة وحاضرة على الدوام، ومستعدة لتشكل هذه الأنوثة إن غابت. الرجولة التي تتداخل في الأنوثة وتجعل منها، ورغماً عنها، مكملاً حيوياً للوجود.

تلك الفلسفة كانت حلمي.

جاء عادل الصوفي ليعجن جسدي أكثر من ذي قبل، يجعل منه باحثاً دائماً عن لذة صعبة ونادرة، ورجولة غريبة تستطيع أن تشكل أنوثتي دون أن أدفع بجسدي نحو تلك الأنوثة. تجعله ينهمر عليها كشلال سحاب ممطر في أي زمان ومكان.. إنه متدثر بصمته وتجاهله للطفلة المرتجفة أمامه. لا يمكن القول إنه كان تجاهلاً بقدر ما كان حذراً والتزاماً بواجب أخلاقي. ذلك ما جعل منه قسيساً أو صوفياً حقيقياً، يقوم بإعدادي لتصوف لا نهاية له.

سارت حياتنا على نحو منظم وهادئ.

قرر عادل أنه يتوجب علي تهيئة نفسي للعمل في مكان ما. وريثما يتم تحقيق ذلك، اتفقنا على ضرورة تكثيف قراءاتي، وحرص أن نجلس يومياً مدة ساعة، لنتحدث فيها باللغة الإنكليزية. أما أكثر اتقاناً منه لهذه اللغة. كنت أتباهى أمامه بلكنتي الإنكليزية، وأتفنن في إدارة الحديث معه حول شتى الموضوعات. أنط من مكاني وأقفز فرحة وهو يتلعثم ويضطرب أمام سرعة نطقي. أقفز وأعامله كولد صغير. وأنا أمتلئ رغبة في أن لا تنتهي تلك الدروس.

صرامته اللامحدودة في فرض بعض القراءات علي، أزعجتني كثيراً. ضرخت في وجهه مرة، وهو يصر على ضرورة أن أقرأ كتباً تراثية:

- قضيت سنتين في البيت وأنا أقرأ، أريد أن أخرج، أن أتسكع وأتنفس الهواء. أريد أن أعمل.

ثم يبدأ في اقتراح أسماء الكتب، فأجيبه في كل مرة: قرأته.

وبعد تكرار هذه الحادثة مرات، طلب مني سرد محتويات كتاب (الكلمات) لجان بول سارتر، لأنه لم يقتنع بأنني قرأته. رويت له قصص ذلك الكتاب وأنا أنتقل من حادثة إلى أخرى وأقوم بأداء بعض الحركات التمثيلية، ولم أنتبه إلى أنه كان أثناء حركتي يلاحق اهتزاز نهدي كيفما اتجها. ونظرت إلى القميص الشفاف الذي أرتديه، ارتبكت، وخرجت إلى المطبخ.

ظل عادل حزيناً طوال ذلك المساء، ولم يكلمني.

في الصباح، وعندما فتحت عيني، لم أجده.

عاد في المساء وفي جعبته ثياب جديدة وكتب وتلفزيون صغير، وشتى أصناف الفواكه والحلوى. قال لي: هذه ثياب تناسبك أكثر، لا أدري كيف تعجبين بهذه الموضات التي ترتدينها. ثم رمى بقميص النوم المعلق على الحائط في وجهي، فأوضحت له:

- إنها القمصان التي كان مقرراً أن أتزوج فيها.
- هذا واضح من خلاعتها، قال بغيظ.

فرد أمامي قميصي نوم بلونين، أزرق وسماوي. وكان ثمة قميصان آخران قطنيان مزركشين بالورود الصفراء والحمراء. لم يكن يكفيني الخوف المغمور في قلبي من انثناءات جسدي، حتى يأتي عادل، ويضع حاجزاً بيني وبين هذا الجسد. أخبئ كل ما يمكن أن يكون مثار رغبة الآخر وشهواته.

أرتدي قمصان الدانتيلا المحببة إلي، التي اشترتها لي أمي. وعادل لم يكن يخفي امتعاضه وسخطه من تربيتي البرجوازية التي أسعى من خلالها إلى تكريس وجودي عبر جسدي. أما أنا، فكنت أتهمه على الدوام بأنه رجل معقد ولا يعرف ما الذي تعنيه الأنوثة، وأنه من الواجب عليه من الآن وصاعداً التعامل مع هذا الجسد بشكل عادي ليتخلص من كبته المزمن. ضحك، واتهمني بالخرق. وحقيقة كنت أعي في أعماقي أنه لم يكن على هذه الشاكلة. أعرف أنه لم يعد في إمكانه مقاومة جسدي، وأنا لم أتمنى أكثر من ذلك.

كيف كبرت فجأة وأحسست بحاجتي إلى الرجل؟

بدأت أتحسس جسدي بعد نوم عادل، وكلي خوف من استيقاظه المفاجئ. كانت الرغبة أشبه بالفوران القادر على إغراق العالم كله في لهيب من النار. أتذكر سالم وجسده، فأشعر بالخوف. أغمض عيني، وألجم أصابعي، وأحاول تفسير ما يحدث. العاهرات فقط من يفعلن ذلك. أغمض عيني، لأفيق على ارتعاشات لجسدي، تطفئني على حلم خافت بين ذراعي عادل.

في الصباح أحاول أن أبدو أكثر نشاطاً، وأبدي عدم اهتمامي بعادل، ويفعل هو كذلك.

صرت أخاف الليل، وما سيحمله. أتقصد السهر مطولاً ليتسنى لي النوم بعمق. سألته في واحدة من الليالي السهر عن القرية، فأكد لي أنه لا يوجد ما يهم هناك، الجميع بخير وقد نسوك تماماً. وحين نمت، كنت أكبت رغبة عارمة بعادل. كنت أعتقد أن المرأة عندما تعبر للرجل عن رغبتها، فإنه لن يتوانى عن معاملتها كعاهرة، وأن أفضل ما تفعله هو خنق هذه

الرغبة. لم أسأل نفسي هل هو الحب الذي يدفعني إليه، أم هي مجرد رغبة. وبعد فترة قصيرة اكتشفت أني كنت مجنونة بحبه، وأن رغبتي فيه، لم تنفصل عن هذا الحب.

المساءات أصبحت أكثر ثقلاً.

شعر عادل بضرورة الخروج، صار يأخذني في نزهات مسائية إلى الأماكن الآمنة. جازف مراراً وجعلني أتعرف إلى الحارات التي قضى فيها طفولته، في حي القميرية، وبين أزقة دمشق، التي تتدلى منها العرائش الخضراء، وتزينها النوافذ الخشبية العتيقة.

في كل زاوية من تلك الأزقة تتسرب رائحة الماضي البعيد. في إحدى المرات اقترب من زقاق بيته، ووقف في مدخله، وبقي يحدثني طويلاً عن جمال بيتهم. بدا حزيناً لأن لون الباب الخشبي قد تغير وتحول من البني إلى اللون الرمادي، قال: هذا اللون رافق طفولتي. بعد ذلك صرنا نأتي في أوقات مختلفة، ونقف أمام ذلك الزقاق الذي أقسم عادل بأنه لن يموت حتى يدخله ويفتح الباب ويحضن أمه كما كان يفعل وهو صغير.

غاب طيف القرية تدريجياً من ذاكرتي. انمحت ملامح ذلك الزمن من هواجسي لأغرق في التوله بذلك الرجل.

تعلقت بيومياته، وأسراره، وأحزانه المنكسرة التي أخذت أشكل نسيجها دون دراية مني. أصبح من الصعب تجاهل ما كان يجري بيننا.

* * *

بدأت العمل في أحد مصانع البسكويت الصغيرة. كان يلزمني للوصول إليه ركوب حافلتين. غرف المصنع متداخلة، لا تصل الشمس إليها، وتحيط بها حديقة مهملة من بقايا قطع الكرتون الكبيرة، والنايلون الممزق. المميز في الأمر أن جميع العاملين في المصنع كن من النساء، عدا صاحب المصنع، الذي خصص لنفسه غرفة صغيرة للإدارة. اشتغلت في التغليف، الذي أتقنته بسرعة، والعاملات الأخريات بدأن يشجعنني على المثابرة ويثنين على شجاعتي. أخبرتهن إحدى العاملات، وهي توسطت لي في عملي هذا، أن أخي مريض وأنني مضطرة للعمل. هذه العاملة هي التي جاءت بي إلى المصنع بعد أن أرسلني عادل إليها، وأخبرها أنني أخته ومن الضروري أن أعمل معها، العاملات ينظرن إلي برقة، ويأتين لي بالكثير من الهدايا. هدايا غير مألوفة مثل زجاجة زيت زيتون، أو كيلو بندورة، أو حتى زيتون أو رز. مثلت لي هداياهن قرباً جديداً من الله، ووجهاً شاسعاً للخير الذي أحسسته ينمو

بين تلك النسوة. وحتى الثالثة ظهراً، وبالكاد نرتاح مدة نصف ساعة، نتناول فيها الطعام، ثم نعود لمتابعة العمل. أشعر بالتعب، وبيدي المتيبستين وأنا أغلف قطع البسكويت، وأنظر إلى النسوة وأراقبهن وهن يعملن بصمت أحياناً وبثرثرة أحياناً كثيرة. ورغم غرابة الجو المحيط بي، إلا أن إحساسي بحرية رواحي ومجيئي، وقدرتي على الانتقال من حافلة إلى أخرى وسط الزحام البشري، منحني معنى لوجودي. زحام أضيع فيه، فيختلط وقع خطواتي مع خطوات الآخرين.

اكتشاف المدينة الواسعة، كان لذيذاً. هذه دمشق، زحام ومصنع وتعب وضوضاء. شعور الثقة بالنفس لم يستمر طويلاً. ربما بسبب التعب أو الوحدة أو علاقتي الملتبسة بعادل. بدأت أمل الزحام، وأفضل عدم رؤية الناس، أو الاختلاط بهم. في البدء كرهت تحديقهم الواحد في الآخر، ونظرات الفضول لدى كل منهم لمعرفة ما لدى الآخر. أما لماذا بدأ الإحساس القديم بالغربة يعود لي، ورغبتي في الابتعاد عن البشر والانزواء وحدي تكبر، فذلك ما لم أفهمه. الشيء الوحيد الذي كنت معنية به وقتها هو التجاهل الكبير الذي لاقيته من عادل، لأني أسلم له تحريك روحي والطيران بها. وراح يطلب مني عدم التدخل في شؤونه، والامتثال لما يقول. عاملني كفتاة صغيرة، وجعل الغيظ يأكلني من توجيهاته المستمرة. لم تفلح كل محاولاتي لجعله يعاملني كما يعامل امرأة شابة وناضجة. لاحظت انه لم يحاول مطلقاً الاستعانة بي في أمر من الأمور، كما حرص على وضع مسافة بيني وبينه، معتمداً على تكشيرته الدائمة في آخر الليل.

أخبرني أنه سيحاول إيجاد رفيقة أتمكن من استئجار غرفة صغيرة معها في حي أفضل. استغربت تحوله هذا. تجاهلت الموضوع ولم أبد أي اهتمام.

قررت منذ تلك اللحظة أن علي التكيف مع فكرة أنني سأكون وحيدة. شعوري بالأمان أخذ يتغير شيئاً فشيئاً، وولد تحفزي الجديد لتحويل روحي إلى كرة ملتهبة جاهزة لحرق من يقترب منها. عاد ليذكرني بالادعاء أمام الجميع أنني أخته، وأي خطأ مني سيوقعه في المتاعب، ثم طلب مني الاستعداد لتهيئة نفسي لامتحان الشهادة الثانوية. أصر أنه سيتكفل بتسجيلي بين صفوف الطلاب الأحرار، وكل ما علي فعله هو إعطاؤه بطاقتي الشخصية.

صرنا نقضي وقتاً أطول في مصنع البسكويت، ونتقاضى أجراً زهيداً جراء هذا العمل الإضافي، فرحت أتأخر في العودة إلى الغرفة. أجد عادل قلقاً متجهماً. تكرر الموقف عدة

مرات، مما دفعه مرة إلى الصراخ في وجهي: في المرات القادمة، عليك إعلامي بتأخرك كي لا أقضي وقتي قلقاً. لم أجبه، ودخلت إلى المطبخ لأقوم بتحضير طعامي. أحسست بالاختناق يلفني، وبدأت أجهش ببكاء خرج من صدري قبل أن يخرج من عيني. لم أشعر إلا ويداه تطوقان كتفي، همست: لا أعرف حتى الآن ما الذي فعلته لك حتى تتعامل معي بهذه الطريقة.

ظل صامتاً، وبدت تلك اللحظات دهراً. تمنيت لو يحتويني. لو يفعل أي شيء عدا هذا الصمت.

تركني وعاد إلى الغرفة، ونام دون أي كلمة. أدركت أنه محاصر مثلي بالحب، فلم أغادر البيت في اليوم التالي. بقيت طوال النهار وحيدة أمام باب الغرفة. كانت الجارة في الغرفة المجاورة تخرج وتدعوني لشرب فنجان قهوة معها. وفي الأوقات التي كنت أصادفها فيها تغمز بعينها مشيرة لي بالدخول إلى غرفتها. كنت أشكرها بلطف وأتابع طريقي. أصرت على دعوتي وقالت: اليوم أنت وحيدة، لنتسل قليلاً. شكرتها ودخلت الغرفة وأنا أشعر بأن قلبي ينقبض، فنظراتها كانت غريبة، جعلتني أرتجف.

لم يعد عادل إلا بعد الواحدة ليلاً. تظاهرت بالنوم. اقترب مني وهمس: نور، نور. أطفأ الضوء وغرق في فراشه، ومع تسارع ضربات قلبي، خلت أنه سينفجر إن لم أصرخ، إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث. فتحت عيني على اتساعهما وأنا أتهيأ للحديث معه عندما بدأت أسمع لهاثاً خافتاً. توقف قلبي عن الخفقان وشممت رائحته. أنة طويلة، وناعمة. تسارع اللهاث، وسيخ نار يشل ظهري. أغمض عيني، وأذوب مع ريقي الوحيد. أنة عالية، واصطكاك أسنان، ثم السكينة.

السكينة.

بقي متيبساً في مكانه، ثم قام ودخل الحمام. سمعت طرطشة المياه، ثم وقع أقدامه قرب فراشي. توقفت الأقدام، وخفت أن يفضحني تنفسي. عاد إلى فراشه، وبدأ فوراني. تلمست طراوة جسدي، وانتظرت شخير عادل. قمت من مكاني لأتأكد من غرقه في النوم. عدت حاملة ثقلاً غريباً على جسدي.. أموت من الرغبة. يداي تنفلتان مع الأصابع.

أنة ناعمة وطويلة. تسارع لهاث.

فوران ودبيب نمل في الأوردة، ثم السكينة.

السكينة ثانية.

* * *

لا يعنيني اليوم من العالم سوى حقيقة الصعود الإلهي لاختلاجات جسدي أمام حضرة الرغبة. تلك النقطة السوداء المغرقة في الغموض، واللانهائية، المتجددة من ذاتها والمعلنة عن الأبدية. السر المعيب للإنسان، كان حقيقته المطلقة التي لم يستطع الفرار منها. أغلق بابه دونها وصار يأتيها من وراء ذاته حتى غابت عنه حقيقتها المقدسة.

احتميت بنشوتي خوفاً عليها من الفقدان، لذلك لم أشعر إلا والحمى تغلبني، وأنا أحبس ما في قلبي وأحاول قتل نور طفلة الأرض. هذيان وتعرق وحرارة مرتفعة. لا أعرف متى ارتفعت حرارتي وكاد رأسي يطير بعيداً عن جسدي، ونار تحرق أطرافي. اكتشف عادل مرضي، وبدا قلقاً. لمحت خياله وهو يروح ويجيء، حاملاً بيده منشفة صغيرة وإناء ماء بارد. ظل يلمس جبهتي بين الحين والآخر، وكنت أنتفض من ملمس أصابعه. دثرني بغطائي وبقيت ارتجف.

في الليل أستيقظ على خيالات رجال ونساء عراة، يطيرون أمامي، يقبلون بعضهم بعضاً وينطفئون في العتمة. جسد غامض يتراقص دون رأس، فجأة يتضح أنه سالم، وهو يقبل امرأة سمينة، يعريها، ويضاجعها، ثم يرتدي ثيابه على عجل. أصابع تزحف نحو جسدي. أصابع رقيقة تداعبني، أصابع سمراء تمسح وجهي. ضحكة عادل الهادئة، تتطفئ. أصرخ. أفيق. يحتويني عادل بين ذراعيه ويمسح جسدي بالماء البارد. يهمس بأشياء لا أستطيع فهمها. يغيب ويعود حاملاً زجاجة دواء. يعطيني معلقة، ثم يعود ليحملني بين ذراعيه، مواظباً على تغيير قطعة القماش البارد بين دقيقة وأخرى. متى غفوت؟ لا أعرف، لكني في الصباح أفقت على رائحة شاي لذيذ.

- هل أنت على ما يرام؟

أومأت برأسي، وابتسمت له. شعرت أنني أولد من جديد. ضحك كطفل. تذكرت أمي وكيف أحبت أبي. ربما نحن من سلالة ملعونة بلعنة الحب. مقدر لنا، نساء هذه العائلة الدخول في الوله. كم أحسست بالسعادة وأنا أصل إلى هذه النتيجة. قفزت من فراشي وارتديت ثيابي على عجل. عادل بدا مذهولاً من حركتي، ومن تغير حالتي على هذا النحو المفاجئ. اقتربت منه وقلت:

- أنا بخير، هل تريد شيئاً قبل ذهابي.

لم أدع له فرصة للإجابة. كنت ما أزال متعبة، اقتربت منه وقبلته من خده. خرجت مسرعة خوفاً من أن تفضحني عيناي. ثم حدث في الشارع ما لا أتوقعه. إن أحداً ما يلحق بي. عاودني خوفي من الماضي. تيبس الدم في عروقي ورحت أركض. حاولت عدم الالتفات إلى الوراء. لمحت ذلك الظل الذي تعقبني. لمعت الغرة الشقراء تحت الشمس.

أنا أعرف هذا الكائن الذي لم ألمح منه سوى خيال عابر لن يصدق عادل أباً بأن ذلك الخيال، كان لأخي علي، ذي الشعر الأشقر، والابتسامة الطفولية.

الفصل الرابع

تأكد لأعمامي مسألة هروبي، والفضيحة التي ستواجههم. اجتمعوا في بيت عمي الكبير، وقرروا أن أخي علي هو المسؤول عن لملمة الفضيحة. وبواسطة علاقاتهم الكثيرة مع رجال متنفذين استطاعوا استدعاء علي بسرعة، على الرغم من أنه لم يكن مر وقت طويل على تطوعه للخدمة في أجهزة الأمن. فرضوا عليه ضرورة إيجادي والعودة بي إلى القرية.

متى بدأ علي تحولاته البعيدة عن روحه الحقيقية، الروح التي عاشت معي منذ تكونت مفردات حياتي الأولى؟ كنت أعرف أنه يحمل في داخله قلباً صافياً صفاء عيني أمي، ولم يحاول في أي وقت الدخول ضمن التجمعات العائلية التي تعقد للضرورة. نظم الشعر مبكراً وكان يبكي لأقل الأسباب، ويبقى وحيداً في غرفته. وحين أحلم به، وكثيراً ما حلمت به في الفترات الأخيرة، كنت أرى غرته الشقراء. حين كنا صغاراً كنت أربط له تلك الغرة مثل الفتيات الصغيرات.

بعد انتقالنا إلى القرية، صار يقضي نهاره كاملاً خارج البيت مع أولاد عمومتي. وعند غرقي في مشاكلي مع أبي وزوجته، غاب علي تماماً ولم أنتبه إلى وجوده. عرفت أنه سيترك المدرسة وسيتطوع في أحد أجهزة الأمن، لكنني ما فكرت في ما سيؤول غليه.

من الصعب عليه معرفة مكاني، وباعتبار أن سالم كان مسافراً قبل هروبي بشهرين حسب التحريات التي قامت بها عائلتي، لم يبق أمام علي من منفذ سوى الدوران في الشوارع بحثاً عني. وصل إلى طرف الخيط الذي سيوصله إلي، عندما عرف أني سافرت إلى دمشق، عرف ذلك بالتحري في محطة القطار.

كان مسموماً مني، ومن حياته التي واجهها، وحولته من ابن امرأة نبيلة ورجل متنفذ، إلى يتيم، ووحيد، بلا رجولة وشرف. لينتقم مني، أنا البنت التي لم تسبب له ولعائلته سوى الفضائح. ما الذي تبقى له من تلك الأزمان الغابرة والهائئة؟ لا شيء سوى ذكرى أمه وخيالاتي وأنا أراقصه وألاعبه، ثم تلك الصور المرعبة لحياتنا الجديدة واحتراقي وجسدي تحت أقدام أبي، والنيران تأكل الأوراق في البيت.

لم يبق له من ذكريات. فتى بلا ذكريات وبلا حنين. اليوم هو رجل كما قال عمه، وعليه أن يجر تلك الكلبة من شعرها ويعود بها إلى القرية، وإذا كان لابد، ولم يستطع، فطلقة واحدة كفيلة بإنهاء الموضوع.

أين اختفى ذلك الماضي البعيد إذن؟ ذلك الماضي الذي أغرق العائلة في السواد. السواد الذي غيبته تفاصيل الحياة المتلاحقة والتغيرات التي حولت الناس إلى بالونات منتفخة وعيون حجرية، وثياب أنيقة، وركض متسارع نحو البقاء.

البقاء وحده كان المفردة الأكثر حقيقة فيما حدث، عندما لم يبق أمام أي فر من أفراد عائلتي سوى لعنتي والدعاء علي بالموت. حولتهم طفلة الأرض من عائلة مرموقة المكانة إلى عائلة يشير الناس إلى رجالها بأنهم لم يستطيعوا الحفاظ على شرفهم، وشرف بنت مجنونة، قضوا عمرهم وهم يأخذونها من مزار إلى آخر، تقرباً من الله ليساعدهم على هدايتها.

تربيتها وضبها في البيت أصبحت قضية صعبة. ولأن الظروف كانت متغيرة وطبيعة العلاقات بين الناس أخذت منحى جديداً، لم يعد يعني الناس أن فلان هو ابن فلان ذي الحسب والنسب والأصل الرفيع، ولم يكن مهماً أن يتصف بالأخلاق المتعارف عليها، على مر التاريخ التي تحدد شر الإنسان من خيره، بل صار كل ما يعنيهم هو كم يملك فلان، وكم لديه من النفوذ في الدولة، وهل كلمته مسموعة عند الكبار، وإلى أي مدى يستطيع خدمة الآخرين من خلال نفوذه، وهل من أولئك الذين شكلوا تاريخاً جديداً في البلاد؟

عائلتي من العوائل التي فقدت تميزها ودورها، بعد أن ظهرت طبقة جديدة من العوائل المختلطة وغير المعروفة، ولكنها تنتشر في جسم الدولة كالأخطبوط، وتنسب إلى نفسها الأهمية وتنسج حولها القصص التي تعطيها مصداقية بين الناس. لا مفر أمام العائلة من التزلف إلى تلك الفئة الجديدة من البشر لدخول الصيرورة الجديدة للحياة، معولين على تاريخ العائلة وسمعتها ونسبها. يقولون إن نسب العائلة يعود إلى ولي من أولياء الله جاء من العراق إلى سورية بحثاً عن النور. عيروا أبي على الدوام بأمي التي لم يروا فيها سوى خليط من الأرمن والأكراك، وعدوها على الرغم من الأهمية التي تحظى بها عائلة أمي في اللاذقية، غريبة. أعمامي لم يقبلوا أن تشارك في أي عيد من الأعياد الدينية التي حافظنا على استمرارها في العائلة، وعندما كانت تحاول مشاركة نسوة عمي في سلق اللحم أو الإشراف على الطعام، يختلقن مختلف الأعذار لإبعادها. كانت تشعر بالإحراج لأنها لا تساعدهن، ولم

تحاول التدخل فيما يقمن به أثناء تلك الأعياد والطقوس السرية لرجال الدين. ربتنا على الرهبة والخوف منها، والتعامل معها كقضية مقدسة، والحديث عنها هو اللعنة لأرواحنا. وعندما يبدأ المشايخ بقراءة بعض الآيات القرآنية على السكين التي سيتم بها ذبح النذور، كانت تطلب مني، باعتباري بنتاً، وضع إصبعي في أذني أو مغادرة المكان، حتى لا أسمع ما يقال. وحين يقومون بالذبح تطلب أن أغمض عيني، وفي إحدى المرات خالفت الأوامر ونظرت إلى السكين وهي تحز رقبة الخروف. رأيت الدماء تتدفق كالسيول الصغيرة من الشرايين المتقطعة، فأصبت بالإغماء. نلت تعنيفاً قاسياً هائلاً لمعرفة الحياة.

أرافق النسوة مع أخي علي، الذي كان يعشق صحبة النساء، وهن يضعن اللحم في دست أسود كبير. أتخيل لوهلة أنه جهنم الحمراء. كيف جاءني ذلك الإحساس؟ لا أعرف. أصوت العيدان وهي تقرقع تحت الدست وتشتعل بقوة، سببت لي على الدوام رغبة في البقاء إلى جانب النار. تلك الأصوات تفصلني عن العالم الخارجي لأضيع عما يقال وأحلق وحيدة في عواملي. اقتنعت أكثر برهبة ما يحدث، وصرت أتخيل أني الوحيدة التي يراها الله من عليائه، وأنه يجب علي التصرف بصدق كما فعل الأنبياء في القصص التي روتها أمي. وأكثر ما كان يغضبني، أنه بعد أن يصبح اللحم والبرغل المسلوق جاهزين، وتقوم النسوة بغمر البرغل بزيت الزيتون، يدخل الرجال الغرفة الواسعة في بيت عمي الكبير، بعد أن تكون ابنة عمي قد قضت نهارها في تلميعها وترتيبها. تجتمع النسوة والأطفال في الغرفة الأخرى، وتبدأ طقوس أكل البرغل باللحم، ومن ثم يوزع على الجيران وبخاصة الفقراء منهم.

لم أعرف في طفولتي المبكرة، أن تلك الطقوس كانت تطبيقاً مباشراً لفلسفة ورثتها عن أجدادي السريين الذين عانوا التعذيب والقتل والدمار منذ مئات السنين. هربوا من المذابح الجماعية والخوازيق باتجاه الجبال واستوطنوها بعيداً عن المدنية. تآلفوا مع الجبال ولغتها، فصاروا نسيجاً حياً لتلك المرتفعات المطلة على البحر، وكنوا لأنفسهم مجتمعاً خاصاً بهم وبعاداتهم وطقوسهم. خافوا عليها من الاندثار فمارسوها على الدوام بسرية وكتمان شديدين. عدوا مسألة مناقشتها عيباً وكفراً، وحرموا نساءهم من معرفتها حتى لا تضعف نفوسهن وتشي بتلك الأسرار، الأسرار الإلهية لتحولاتهم وفلسفتهم، منذ أفلاطون وحتى آخر الأولياء المنتشرين في السهول والجبال، بقبابهم البيضاء وقصصهم الغرائبية المغرقة في الزهد.

كنت محاصرة بالمسيح من جهة أمي، والإمام علي بن أبي طالب من جهة أبي، وبقيت مفتونة بذلك الحصار وعملت على تبنيه، وهذا ما أخرج عائلتي عن طورها. أردت العيش بطريقة مختلفة، ونسيت أنني مجرد أنثى لا تشكل في عقيدتهم سوى وعاء لاستمرار الحياة، وأي خروج لها عن هذا الدور سيحولها في حيواتها القادمة إلى حيوان. وعلى عكس اعتقادي بأني سأكون بالنسبة لهم بنتاً ذات شأن، أغرقتهم في الوحل والخزي والعار.

كيف لهم أن يلمعوا صورة العائلة من جديد، وهي آخر ما تبقى لديهم من الماضي؟

* * *

بعد تلك الأحلام الكابوسية التي كنت أراها يومياً، حتى بين جناحي عادل، بدأ أخي علي يأتيني في المنام على هيئة نائم في ضريح المزار الذي شفاني من جنوني ذات يوم، كما ردد أهالي قريتنا. أقبل رأسه كما فعلت دائما وهو صغير، وألعب بغرته، التي مالت إلى الأبيض. يتحول إلى صنم أسود في اللحظة التي أهم فيها بحمله بين ذراعي كطفل صغير. في حلم آخر رأيته يمسك بذيل فستان أمي، مذعوراً من شكلي القبيح، صارخاً بمي أن تهرب به بعيداً. أحاول الاقتراب منه، فيتحول فجأة إلى ابن عمي محمد، بجسده العاري وعضوه المنفوخ. صار علي همي الشاغل. أعود إلى الطفولة، ثم إلى اللحظة التي فصلتني عنه. اكتشفت أن طفولتي كانت بعيدة عنه، وأنه على الدوام عاش في البيت كدمية أنيقة، ولم أشعر بوجوده حتى اليوم الذي حلت بنا الكارثة، وصار يترتب علي الاهتمام به، ومراقبته حتى لا يهرب خارج البيت ويلعب مع صبيان القرية.

ماتت أمي فعرفت علياً أكثر وصرت الوحيدة المسؤولة عنه. جرت العادة أن تكبر البنت قبل الصبي مما جعل مني أماً له، حتى الوقت الذي لم أعد أشعر فيه بكل ما يحيط بي، سوى بانعتاق روحي نحو الحيوات الجديدة. بعد ذلك اختفى علي ولم يظهر ثانية سوى في لعناته.

رحت أبحث عنه بين الوجوه، دون إرادتي.

صار يطارد اسمي أينما حل، ويلعنني علانية. فإذا مررت من مكان ما، أعرف أن علياً مر من هنا، لأن لعناته كانت تبقى معلقة في الهواء، تلاحقني أينما رحلت، ممتزجة بصدى ضحكاتنا الطفولية. سكنت اللعنة روحي إلى الأبد. وسوف تتقمص حياتي الجديدة. أينما اتجهت في دمشق كانت غرته تلمع أمام عيني، كنت متأكدة أنه مصمم على عدم العودة

منكس الجبين، فخيالات أهل القرية تلاحقه بنظرات مؤلمة. صراخ العم، والمصير الملعون الذي خبأه له القدر، جعلاه يبكي وحيداً، متمنياً الهروب مع تلك الكلبة، التي هي أنا، إلى آخر الدنيا.

في اليوم الذي وطئت قدما علي دمشق، صرت أسمع نحيبه.

حدسي يخبرني بذلك.

بدأت أرى خيالاته، وأحس بأنه يناديني إليه.

هكذا لازمتني الكوابيس، ولوثت أيامي.

* * *

بدأ عادل يشعر بالخوف جراء ما يحدث.

في الليل يدخل إلى الحمام ويبدأ لهاثه. أسمع أنينه، أبدأ بلعبتي السرية أيضاً، وحيدة في فراشي، وهو وحيد في الحمام. وبعد مدة قصيرة من مراقبتي للأصوات التي يصدرها، كنت أرتب انفعالات جسدي مع تأوهاته، وفي لحظة فورانه، أكتم صوتي خوفاً من معرفته بالأمر، وأطلق لفوراني العنان. نهدأ سوياً، نرتب فراشينا ثم يلقي كل منا برأسه إلى الوسادة. يبدأ عادل في إطلاق تنهدات حزينة، وهو يراقب جسدي تحت الغطاء، ثم يدير ظهره في اتجاه الحائط. لم أعرف أبداً متى يغفو، لأني كنت أنام وأصحو مرات عدة وهو يطلق تلك التنهدات الغريبة الشبيهة بأصوات آتية من أعماق الأرض. أصوات تفور من البعيد، حاملة النداء الأول للرغبة، التي حملها من جسد إلى آخر.

حفظت شكل جسده ورسمته في مخيلتي وشكلته بيدي كما يحلو لي.

أتخيل أن لمسة أصابعه فوق صدري ستكون ناعمة، وأن ثقله فوق جسدي سيجعلني أشعر بالامتلاء والاحتواء. ورحت أقلد أناته وأصواته المتهدجة، حتى خيل إلي بعد ذلك أنني حفظت رعشته وعجنتها في جسدي، وصرت أنتشي من هذه العجينة. إن مجرد سماع تلك الأصوات، كان كفيلاً ليشعرني أن كل ما في يغلي، وأني غريبة عن نور طفلة السماء.

ما يجري تحول في اتجاه طفلة الأرض الراقصة في حضرة الشهوة والرغبة. طفلة السماء في تلك اللحظات، وبعد أن تنتهي اختلاجات النشوة، تغرق في إحساس من الذنب، وعدم احترام الذات كأن اتفاقاً سرياً عقد بيني وبينه، تواطؤ مدروس في حركاتنا جعلنا نتصرف ككائن واحد.

امتنع عادل عن الصراخ في وجهي، وتلاشت مشاجراتنا، وصار يعاملني برقة كالأيام الأولى التي التقيته فيها. لكن تماساً صغيراً بين جسدينا كان كفيلاً بتحويلنا إلى كائنين متوترين، لا ندرك ما الذي نقوم به، تبتعد أعيننا عن بعضها، فيحاول كل منا النأي عن الآخر فترة قصيرة من الوقت، ريثما نهدأ ثم نعود لذلك التواطؤ. الحرمان القاسي لاحتراق أجسادنا، كل منا وحيداً، موصول بحبله السري، بينه بين أصابعه ودمائه. الخوف الكامن من تحول خيالاتنا إلى حقيقة، ثم آلاف السنين من العادات والتقاليد والقوانين والمحرمات، تلقي بثقلها علينا، وتجعل من الشرارة التي كانت تشتعل بين حين وآخر، بركاناً مستعداً للانفجار في أي لحظة.

أعود من عملي في المصنع والتعب يتفشى بين مفاصلي. بالكاد أقوم بتحضير الطعام. آكل، وأغفو قليلاً ثم أبدأ الدراسة. جارتنا أميرة، كانت تأتيني بين وقت وآخر ببعض الأطعمة الطيبة، وترمقني بنظرات غريبة، وعذبة. أعجبت بطريقتها في ارتداء ملابسها وبتعليقاتها الساخرة على ما أقوم به من محاولات للدراسة، وبين الحين والآخر لا تنسى تذكيري بأن عادل هو رجل عجوز، وليس فيه ما يثيرها، ويتوجب علي عدم البقاء طويلاً في البيت حتى لا تنتقل كآبته إلي. تأتيني بالفساتين الغريبة والفاضحة وتجعلني أرتديها أمامها وهي تصفر بإعجاب شديد. تقول: انظري إلى صدرك، يبدو مثيراً، تحتاجين إلى حمالة أكبر. تقترب مني وتحيطني بذراعيها، تلتصق بجسدي فأشعر أن مساً كهربائياً يصيبني. أبتعد عنها بخوف، وأحاول أن أتذرع بدراستي.

في النهار أدرس التاريخ والجغرافيا، وفي المساء اللغة العربية واللغة الإنكليزية. أما دراسة الفلسفة فكنت أنتظر مجيء عادل ليشرح لي الدروس، وهي متعتي الحقيقة. يحدثني عن الفلاسفة والنظريات الفلسفية. لقد أضاف الكثير إلى ما كان مقرراً في الكتاب، وتوسع في الحديث عن ظهور الفلاسفة.

كان يتحدث وأنا أصغي إليه بدهشة طفل، حيث أضع يدي على ذقني كتلميذة صغيرة أمام معلمها الحكيم.

* * *

حدث لي أول احتكاك عميق مع جارتنا أميرة.

طرقت الباب بشدة، وجاءت ترتجف باكية.

لم نستطع أنا وعادل فهم ما تريد قوله. منظرها كان كافياً ليجعلنا نعتقد أن مصيبة كبيرة قد حصلت. دخلت إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها بسرعة، وكأن جنوناً أصابها. اقتربت من عادل قائلة: أرجوك، هل أستطيع أن أبقى هنا لفترة قصيرة. إنه ورائي. رأيته. كانت تتكلم بسرعة وخوف. تتلفت يميناً ويساراً وتحاول إخفاء عينيها الدامعتين.

رحب عادل بها وأحسست بخوفها ينتقل إلي. أجلستها على فراشي، ودخلت لأعد قهوة لها، كما طلبت وهي تشعل سيجارتها بعصبية. كنت أسمع بكاءها آتياً إلي في المطبخ، وصار عادل يهدئ من روعها. طلب مني الاعتناء بها جيداً، لأنها خائفة من أحد ما، وأن لا أفتح الباب لأي كان، ولا أصد أي صوت ريثما يعود. تركنا عادل وخرج. بقيت مع أميرة. أنهت فنجان قهوتها وعادت للبكاء والهذيان:

– أينما أذهب وأهرب منه، يعثر علي، حتى لو هربت إلى آخر الدنيا. أعرف ما الذي يريده، لديه عريس.

أجهشت بالبكاء ولم تتابع كلامها، لأنها اختنقت بجملتها، وهي تنفث دخانها، وصدرها يبدو من تحت ثوبها الشفاف، يعلو ويهبط وكأنه على وشك الانفجار. اكتشفت أنها جميلة جداً، شفتاها قرمزيتان، عيناها مغرقتان في السواد والحزن، أنفها دقيق وحاد، شعرها مصبوغ باللون الأشقر، يبدو متنافراً مع لون بشرتها السمراء الداكنة. لم أتصور أن الشخص الذي تتحدث عنه هو والدها.

صرخت أميرة: إذا دق الباب هل ستفتحين له؟ أجبت بالنفي، وعادت إلى البكاء:

– إنه أبي. أنا في العشرين ومتزوجة ومطلقة ثلاث مرات. في كل مرة يترتب علي البقاء مع الرجل أشهراً، ثم يطلقني.

بذهول سألتها: ولماذا؟

– لماذا؟! أنا نفسي لم أكن أعرف. في المرة الأولى كنت في الرابعة عشرة، وكنت سعيدة لأني سأتزوج من رجل غريب غني، وسيصبح لدي بيت كبير وثياب جديدة، لكن الأمر كان مختلفاً تماماً، فالبيت الذي تزوجت فيه كان مؤجراً لثلاثة أشهر فقط.

شهقت بعمق وطلبت فنجاناً آخر من القهوة. أعددت لها ركوة كبيرة. طلبت منها متابعة حديثها. نظرت إلي بحزن، عيناها السوداوان تلمعان بالدموع: وجدت في تسلية لك؟ أليس كذلك؟

- لا .. أنا آسفة. فقط أردت التخفيف عنك.

- بقيت ثلاثة أشهر مع ذلك الرجل. لا تتخيلي ما الذي فعله بي، كان يطلب مني أشياء غريبة، ويستمتع بالنوم معي وأنا أصرخ، وقمة سعادته عندما أجثو على ركبتي وأ ...

توقفت عن الكلام، وصارت تلهث:

- كنت خائفة منه على الدوام واعتبرته كائناً متوحشاً. وتمنيت لو أنه يموت، وفرحت عندما خرج ذات يوم ولم يعد. جاء أبي بعد أيام ليخبرني أنه طلقني. أما لماذا، فلم أحاول معرفة السبب، لأن ما حدث يعني ببساطة،أن ينتهي عذابي معه. عدت إلى بيت أبي، وجدت بيتنا مختلفاً تماماً، أثاث جديد وثياب جميلة، وأخوتي الصغار يبدون في حال أحسن. بقيت فترة أشعر بالخوف من عودة ذلك الرجل، ولكنه لم يعد. جاء رجل آخر في الصيف الذي تلا طلاقي، ولم أسأل نفسي ما الذي يتوجب علي فعله، لأنني كنت في بيتنا لا أبرحه، وإذا خرجت، فعلي ارتداء الجلباب الأسود الطويل، وعلي أن أنتبه إلى ما يمكن أن يقال عني، خاصة وأبي رجل متدين وله سمعته النظيفة في الحي. كان زوجي الثاني أكثر لطفاً، وعاملني بحب واهتمام كبيرين. لكنه اختفى مثل الأول. ثم جاء أبي أيضاً ليعيد علي الكلام نفسه. لقد طلقني!! عدت بعد ذلك على الحياة نفسها التي كنت أحياها من قبل. بدأت أشعر أن هناك شيئاً ما يحدث، ولم أكن أكملت السادسة عشرة عندما تقرر زواجي للمرة الثالثة. وهذه المرة أنا وأختي التي تصغرني بسنة. في الحقيقة كنا خمس بنات.

توقفت عن الكلام وعادت إلى البكاء. حاولت التخفيف عنها، ولكنها تهربت من ملاطفتي لها:

- كان أبي يزوجنا لرجال غرباء لمدة أشهر، ثم يطلقنا منهم، ويقبض الكثير من الأموال لقاء ذلك. عشنا في يسر دائم، بعد أن كبرنا وبدأنا نتزوج الواحدة تلو الأخرى، ونطلق الواحدة تلو الأخرى أيضاً. أنا لم أعترض رغم معرفتي لما يحدث، ولكن أي خيار كان أمامي؟ بدأت أحس بحاجتي إلى رجل، وبدأت أضجر من البقاء في البيت بانتظار عريس جديد. أحببت رجلاً، كان يسكن في الشارع الآخر من حينا ولم أستطع البقاء في البيت، وهربت معه إلى هنا، ولكنه تركني بعد شهر. قال إني امرأة عاهرة. وبقيت وحيدة في الشام. بعيدة عن مدينتي وأهلي. لقد عرف بوجودي هنا..

- من هو؟
- أبي. أجل، عرف أين أسكن، والبارحة هربت منه. ركض ورائي في الشارع، وكان يهددني بأنه سيذبحني إن لم أعد إلى البيت. قال إنني لوثت اسمه ومرغت شرفه بالوحل، أعرف أن هناك عريساً في انتظاري، لكني أريد أن أعيش هكذا كما أريد. ما الذي يريده مني، إنه يعيش حياته بهدوء وسلام، لماذا لا يتركني أعيش وحدي، ألا يكفيه ما فعل بنا، لم يجعلنا نشعر في أي يوم من الأيام أننا يمكن أن نكون غير ما يريده. دائماً نخافه، وعلينا الحرص على مشاعره ومكانته وهو لا يفكر سوى بالبقاء في البيت وإصدار الأوامر لنا وتكرار المواعظ، كان يعمل محاسباً وفجأة صار شيخاً. غير ملابسه وصار يقضي وقتاً طويلاً بعيداً عنا، وفي البيت كنا لا نكاد نراه، وهو يقلب كتبه السميكة الصفراء، لكن حياتنا لم تتوقف عند هذا الحد، ترك عمله وصار أكثر تهجماً، وكان يردد على مسامعنا بأنه سيتزوج، لأن أمي تنجب له الكثير من البنات وهو أمر يجلب له الغم. أنا خائفة جداً، أخاف من عينيه. لابد أن لديه رجلاً جديداً. سيقول لي، سأزوجك على سنة الله ورسوله.
- ولكنك .. عفواً .. أقصد..
- أعرف، ستقولين إنني أبيع جسدي. وليكن أنا أبيعه بثمن أقل. هكذا هو الفرق فقط. ولكني أبيعه لمن أريد. ولا يقبض الثمن أحد سواي.

تساءلت إن كانت أميرة فتاة جيدة أم سيئة، وهل علي الاعتراف بأنها أخلاقية، أم بلا أخلاق؟؟ فكرت بأن عادل الصوفي وأنا وأميرة. نشبه ثلاثة وعول ضالة، نحاول الحياة داخل ذلك الحجر، الذي حولته يدا عادل إلى بيت للشمس.

* * *

ما دفعني أكثر لمعرفة عوالم عادل السرية، تلك المصادفة التي قربتني منه وجعلتني على تماس مع كائن لم أتخيل يوماً أني سأنتمي إليه. عاد عادل متأخراً، في إحدى المرات، وكان يسعل بطريقة مخيفة، وبالكاد فتح الباب حتى وقع أرضاً وغرق في نوبة سعال طويلة. لم أستطع حمله، كان يغلي كبركان، طلب مني الابتعاد عنه، تجاهلت ما قاله. جررته حتى الفراش ونزعت ملابسه، وألبسته بيجامته وهو يرفض مساعدتي، مشيراً بيده لأبتعد عنه.

كدت أهوي أرضاً وأنا أرى وجهه يتغضن من الألم بعد نوبات السعال المتكررة. أتيته بالماء. شربه وأغمض عينيه، فتحهما بعد ذلك ثم عاد إلى نوبات سعاله الطويلة.

ما الذي علي فعله، هل هو في حاجة إلى دواء سعال؟ كيف سأتصرف؟ فكرت بجارتي أميرة.

أسرعت إليها وطلبت منها المساعدة. لم تنتظرني لأكمل كلامي. خرجت بقميص النوم ذي الفتحة الواسعة عند الصدر وبالكاد غطى جزءاً بسيطاً من فخذيها. سيجارتها مع الرائحة الكريهة لم تفارقها أبداً. قامت بجس حرارة عادل. ابتسمت لي وهمست: لا تهتمي. مجرد رشح، ثم خرجت لتعود بزجاجتي دواء، مع بعض الأعشاب، وطلبت مني أن أنقعها في ماء مغلي ثم أعطي عادل الدواء ثلاث مرات.

شكرتها بارتباك، ولم أنتظر لتجيب على كلماتي المعبرة عن غاية امتناني لما قامت به. أغلقت بابها بسرعة، ولمحت خلال الشق، رجلاً نصف عار. عدت إلى عادل وبقيت طوال الليل قلقة. نمت على البساط قرب فراشه، وعرفت أن حياتي من دونه لا تعني شيئاً، وأقسمت لو أن مروهاً حصل لهذا الرجل فستكون النهاية بالنسبة لي. سأقتل نفسي. شعرت بالارتياح عندما لمعت الفكرة في رأسي وغفوت بعض الشيء، لأفيق صباحاً على حركة عادل وهو يحاول ارتداء ثيابه. تخيلت أنه تماثل للشفاء، لكن حركته البطيئة وترنح جسده وهو يحاول جاهداً الوقوف باتزان، جعل من محاولته تمثيل دور المعافى، فاشلة. صرخت به:

- ما الذي تنوي القيام به، عد إلى فراشك، هل تريد أن تقتل نفسك؟

خرج صوته بصعوبة:

- علي الخروج لأمر ضروري.. هناك شخص ينتظرني. قلت لاهثة: تستطيع تأجيل لقائه لوقت آخر. أجاب بهدوء وحزم: مستحيل.. مستحيل.
- أستطيع الذهاب بدلاً عنك.

نظر مستغرباً، وتفحصني بفضول، وأكمل ارتداء ملابسه.

- لن تستطيع الخروج.. إذا لم تكن واثقاً بي، ابق في البيت.

بدا أنه لم يسمعني. وقفت أمام الباب ولم أدع له فرصة للكلام:

- ورأس أمي لن أتزحزح من هنا. أرجوك، أعطني فرصة واحدة. أعرف أن هناك أموراً سرية لا تريد إطلاعي عليها، ولكنني سأنفذ ما تطلبه دون أي سؤال. أنهيت

جملتي وعاودته نوبات السعال القوية. ترنح ثم أرخى جسده على الفراش. شهقت واندفعت إليه، وجدت حرارته مرتفعة. كان يتعرق بغزارة، نزعت حذاءه من قدميه، وفككت أزرار قميصه، وبدأت بوضع الكمادات على جبهته: أرجوك، ابق هادئاً. بدأت البكاء. بكيت بصوت مسموع وأنا أبلل الخرق بالماء وأضعها على جبينه، ثم أنزعها ثانية وهو ينظر إلى في استغراب. أمسك يدي وأطبق عليها. آلمني في البداية، ولكني لم أشعر إلا وأنا مرمية على صدره الحار. همس: كفى بكاء كالأطفال، هيا عليك أن تكوني في الموعد بعد نصف ساعة فقط.

دهشت مما يقول، وقفزت عن صدره ثم أحته بذراعي وأنا في غاية الفرح. أخيراً سأكون محط ثقته، وسأدخل عوالمه التي طالما أرقني التفكير فيها. في الحقيقة، الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي في تلك العوالم، هو أنها تخص عادل.

حملت كيساً بلاستيكياً أسود يحوي بعض الملابس، وظرفاً يحوي نقوداً. أخبرني عادل أن الشخص الذي سألتقيه، ملاحق من الدولة أيضاً ولكنه مريض. وأعطاني مواصفاته، وحدد لي بدقة المكان الذي سألتقيه فيه. طلب مني أن أستقل سيارة أجرة، وأحاول أن أبدو فتاة شجاعة. خفق قلبي، عندما همس لي: انتبهي لنفسك، أنا معك، تذكري هذا. وحين أغلقت الباب كانت أميرة تراقبني. حييتها، فابتسمت لي قائلة: لا تخافي. سأنتبه إليه في غيابك. اخترق قلبي سيخ نار، وأنا أتخيلها بالقرب من عادل، تضع له قطع القماش المبلل. تخيلت نفسي إحدى بطلات الروايات، وينبغي علي مواجهة الخطر والمجهول. الأمر يختلف عن المجهول الذي أردت اكتشافه وأنا في القرية. اتساع دمشق أخافني في البدء، وحرك كل ما أملك من قوى وأحاسيس لأتصرف كامرأة ناضجة. لم يكن بالأمر الصعب، لأن عادل احتواني وعلمني كيف أشكل هذه المدينة بالطريقة التي أريدها لتناسب حياتي. حين بدأت العمل اليومي في المصنع، صرت على تماس أعمق مع روح المدينة وعذاباتها. الأمر ليس هيناً، فالتفاصيل اليومية لفتاة عاملة في مصنع بسكويت تقوم بتغيير حافلتين يومياً للوصول إلى المصنع، وتبقى طوال النهار تشتغل بالتغليف واقفة على قدميها، تجعل من الحياة اكتشافاً وتعباً دائماً. ومع مرور الوقت صار كل ما يحيط بي نسيجاً جديداً، أحبكه بطريقتي الخاصة علني أصنع منه حلمي المتخيل. إلا أن النجاح لم يحالفني دائماً.

* * *

من هو الرجل الذي سأقابله، وأي حياة يعيشها بين المرض والملاحقة؟ وما الذي يعطي الحق للآخرين بوضع البشر في حالات وظروف كهذه؟

بت أتخيل أن ذلك الشخص سيموت، وربما يقبضون عليه في لحظة وصولي، وربما وأنا أسلمه الكيس، وقد يأخذونني إلى السجن. إذا حدث ذلك فلن يهمني، ولكن ماذا عن التعذيب؟ قرأت كثيراً عما يحدث في السجون، هل أنا على استعداد لذلك؟! فكرت بأنه يجب علي أن أكون أكثر صلابة، سأناوله الكيس، وأقول له إن عادل يسلم عليك، ثم أمضي في طريقي، وأعود مباشرة إلى البيت.

وصلت السيارة المكان المطلوب.

نزلت منها، ولم ألمح رجلاً بالمواصفات التي أخبرني بها عادل. قال إنه أسمر ذو سحنة حزينة، ويلبس سترة رمادية، وسيكون حاملاً في يده جريدة. وسيكون واقفاً تحت شجرة الكينا مقابل المشفى. أين هو إذن؟ هل ألقوا القبض عليه؟ أرعبتني الفكرة. إذا لم يأت هذا الرجل فسيكون ذلك بمثابة فشل ذريع لي. تمشيت في المكان وأنا أمسحه بنظراتي. لم أنتبه إلى أنه كان يقف بعيداً، وعرفت فيما بعد أنه فعل ذلك لاحتمال تسرب معلومات عن وجوده، فالخطر يحيط بهؤلاء البشر كيفما اتجهوا، لهذا تعاملوا مع الخطر وكأنه طريقة يعيشون على أساسها. رأيته من بعيد، أخيراً. وجدته! لم أتوقع مشاهدة رجل عجوز أمامي. اتجهت غليه وتجمد في مكانه. بدا مألوفاً، ضئيل الجثة، منحني الكتفين، وذا سمرة داكنة. صرت أمامه. ابتسمت ومددت يدي وأنا ألقي عليه التحية: هذا لك، عادل يسلم عليك. أعطيته الكيس. لم ينفعل، وواجهني باستغراب.

- عن أي عادل تتحدثين؟

أدركت أنه لم يثق بي، وربما اعتقد أن عادل اعتقل وهذه محاولة لاستدراجه:

- عادل مريض جداً لم يستطع المجيء.

تركت الكيس على جانبه ملقى على الأرض، وأدرت ظهري ومشيت. قلبي يخفق بشدة، ولم أعرف إذا كان علي التصرف على هذا النحو أم لا. سمعت وقع أقدام تلاحقني، وأمسكت يد بي من كتفي. توقفت. إنه هو.. ابتسمت له، وبدا أهبة الانفجار بالضحك وهو يقول:

- لم أنت عصبية؟

ابتسمت، ثم رحت أضحك. في الحقيقة تصرفت وكأنني المرأة الحديدية التي طالما قرأت عنها في الكتب والروايات. بدأنا نضحك سوياً، ولم ننتبه إلى ذلك الخوف الذي أحاطنا. قال لي وهو يغمز لي بعينيه: شكراً. ثم أدار ظهره، ومشى في الطريق حاملاً كيسه.

ما الذي حصل؟ لم تنقلب الدنيا. في النهاية قمت بمساعدة هذا الإنسان، وشعرت أن قلبي يكبر وأن عيني تفيضان بالسعادة. ذلك النهار كان البادئة التي جعلتني أشعر أنني لم أكن محور العالم، وأن عذاباتي لا تساوي شيئاً أمام عذابات الآخرين، وأن الأرض لا تقف على قرنين أمسكهما بيدي. لقد كان ذلك الرجل أشبه بحطام جسدي، وبدا في غاية المرض والفقر، ولكنه لم يتوان عن الضحك معي، وكأنه أمير مترف وهو يكلمني بتلك الأناقة، ويحاول أن يشكرني بحنو. فكرت أن على الإنسان الشعور أن العذابات والمصاعب التي تمر في حياته ما هي إلا سراب أمام حقيقية العذاب الذي يعيشه الآخرون.

قال عادل ممازحاً بعد أن أخبرته بما جرى: كل شيء تحولينه إلى درس في الديانة المسيحية.

هبطت من قممي وهمست لنفسي: حتى عادل لن يفهمني، ولم أعد للحديث مع أي كان عن تلك المشاعر التي تنتابني فجأة عندما أكون وجهاً لوجه مع العذابات التي تحرك الهواء من حولي، ومع الكوراث التي تحيط بالبشر والحروب والأجساد المحترقة تحت النيران والأطفال الموتى جوعاً. أحتفظ باختناقاتي وحيدة عن كل ما يحيط بي، وكثيراً ما كنت أجدني وحيدة أمام صورة طفل ميت، فأبدأ الصراخ والبكاء شاعرة بضآلتي وبأن يدً تنتزع قلبي من يدي. بعد أن كبرت لم أغير تلك العادة، لأن تلك الاختناقات البكائية كانت تجعلني أشعر بالهشاشة التي تحيط بالعالم البشري، وأن كل ما يحيط بي من تاريخ قديم وحضارات عظيمة وإنجازات هائلة، صنعها ذلك المدعو إنسان، ما هي إلا علب كارتونية متراكبة، وقابلة عند أي لمسة للسقوط والانهيار والانتشار في الفضاء كالذرات المتناثرة.رويت لعادل أدق تفاصيل لقائي بالرجل، ذي الضحكة الملائكية، كما اسميته. أخبرني أن هذا الرجل خرج من أيلول الأسود وتل الزعتر وحرب لبنان حياً، تلك المجازر التي لاحقت الفلسطينيين أينما اتجهوا، أما كيف نجا؟ فالله وحده يعلم. طلبت منه تفاصيل أكثر عن تلك المذابح وعن ظروف حياة الرجل، فرفض الإجابة. قال: لن يطول الوقت وستعرفين يوماً أن دماء غزيرة شكلت تاريخ

بلادك. طلب مني إعداد كأس من النعناع. دخلت المطبخ ورأيت صحوناً فارغة وبقايا طعام. اندفعت إليه صائحة: من كان هنا؟

- الجارة أميرة، ألم تخبرك بأنها ستعتني بي أثناء غيابك؟

شعرت بالغيظ يأكلني. لقد جاءت إلى هنا بذلك الفستان الفاضح، وجلست قربه، ونظرت في عينيه.

- هل كان طعاماً لذيذاً؟ قلت.
- جدً. أجاب بهدوء. وأدركت أنني سأعاني من غيرة قاتلة، ولم يكن في إمكاني التعبير والبوح عن هذه الغيرة، ولم أستطع التحكم بها. قررت أن لا أدع تلك المرأة تدخل الغرفة ثانية، قلت: هذه الجارة غير مريحة وتصرفاتها مريبة، و..
- أعتقد أنه يجب أن تصمتي؟

رد بحزم وقسوة، وبدأت البكاء علانية من تلك القسوة الجارحة والطريقة المهينة في الحديث. أنهى كأس النعناع، وقبل أن يغفو، التفت إلي وقال: كم عانيت من تلك الطريقة في التفكير. ألم تهربي من هذا النمط في التفكير؟ الآن تعودين وتمارسين المنطق نفسه مع امرأة أخرى لأنك ترين الرجال يدخلون إلى بيتها، فقط لو حررت عقلك قبل الهروب من بيت أهلك.

سأصرخ في وجهه بأني أحبه وكل ما قلته مجرد غيظ. لا أفكر بهذه الطريقة التي يتهمني فيها، لكنني فضلت الصمت. وما عدت للحديث في هذا الأمر ثانية.

صار عادل يثق بي ورحت أقوم بأداء العديد من المهمات التي أخذ يوكلها إلي بين الحين والآخر. ولم تكن هذه المهمات لتتجاوز إيصال المؤن والرسائل، ولكنها كانت كافية لتجعلني على دراية بما يحدث حولي. بالنسبة إلى عادل بدا الأمر سيان. اعتاد الملاحقة والاختفاء ولم يعد يعنيه أن يعود لحياته الطبيعية. فبعد ذهابه إلى لبنان، عاد من تلك الحرب فاقداً الكثير من رغبته في الحياة. أخبرني أنه في إحدى حالات يأسه، أثناء القصف الجنوبي على بيروت، خطر في ذهنه الخروج إلى الشارع عارياً لينعم بالراحة والسكينة من الدماء التي تصرخ في كل شوارع بيروت وتلاحقه في كوابيسه. قلت له: ألم تملك الشجاعة؟ لم يجب. ولكنه نظر في عيني وهمس:

- ربما من أجل أن ألتقيك، ثم ابتسم بهدوء وسكينة مغمضاً عينيه.

ابتسامته العريضة وهو نائم، جعلتني أحلف للمرة الألف أنني سأبيع عمري كله لأجلها.

بعد أيام، طلب مني عادل تسليم رسالة للرجل المسن، الأعرج، ذي السمرة الداكنة، الذي التقيته سابقاً.

كان علي أن ألتقيه في أحد شوارع دمشق القديمة، بالقرب من باب توما، وكان الزقاق المفترض واسعاً إلى حد ما، وعلى جانبيه تصطف البيوت العتيقة والشرفات الصغيرة المثقلة بأصص النباتات الخضراء. الوقت ليلاً، وعلى الرغم من تحذيرات عادل بأن الأمور أسوأ من ذي قبل، إلا أنني لم أعد للإحساس بالخوف. شاهدته. كان يبعد مسافة خمسين متراً وأنا أتجه إليه بسرعة. فجأة توقفت سيارة بيضاء ونزل منها عدة رجال بلباس مدني وأمسكوه بقسوة وأدخلوه السيارة. في تلك اللحظة أطلقت صرخة عالية وأنا أضع يدي على فمي وأشعر أن الدنيا تميد من تحت قدمي. التفت الرجال إلي. أطلقت ساقي للريح. الهروب هو ما يجب أن أفكر فيه. دخلت زقاقاً مقابلاً، ومن هذا الزقاق انعطفت في زقاق آخر، وكعبا قدمي تلتصقان بمؤخرتي. كنت مثل أرنب جبان يفر أمام ذئب. أردت البكاء وأنا ألهث، لكن حلقي بدأ يحرقني وغبت عن كل شيء سوى الركض. التفت ورائي، فلم المح أحداً، ولكني حين قررت متابعة المسير، شاهدت في الجهة المقابلة للشارع السيارة نفسها. لم يبق أمامي من مفر، علي دخول إحدى البنايات والاحتماء ببيت من بيوتها ريثما يخرجوا من المنطقة، وربما لم يروني ويكون في إمكاني العودة من الطريق نفسه الذي هربت منه. ولكن، هل سأقوم بتكرار نفس الخطأ مرتين؟ كم أنبت نفسي على تلك الصرخة؟ ولماذا لم أتحكم بنفسي؟ ما زلت طفلة ولا أحسن التصرف، ولا أستطيع أن أضع بيني وبين الخارج مسافة لأفكر من خلالها بما يجب القيام به.

على يساري شاهدت مقهى، أمام الجامع الكبير. إنها مقهى النوفرة. نزعت الغطاء الرقيق الذي ربطت فيه شعري، ونكشت شعري قليلاً، ثم خلعت سترتي، وبقيت بقميص خفيف يظهر كتفي عاريتين. جلست في المقهى، وبإنكليزية ذات لكنة غريبة أضفتها من عندي طلبت من النادل كأس شاي ونارجيلة. وباعتبار أن شعري أشقر وسحنتي بيضاء وقميصي فاضح في عز الشتاء، لم يلتفت إلي أحد من الرجال الذين انتشروا على الجانب الآخر من المقهى. صنعت دوائر من الدخان في الهواء مديرة ظهري لهم. قام أحد الشباب واقترب مني

عارضاً علي خدماته فيما إذا كنت أود شراء بعض اللوحات الصغيرة. كانت إنكليزيته سيئة أيضاً. ولجعل وجودي طبيعياً، طلبت منه الجلوس. كنت أرتجف من البرد والخوف، ولكني ساومته على أسعار اللوحات. أطلت الحديث أكثر فترة ممكنة. يئس الشاب مني، فقام من مكانه بابتسامة باردة. التفت ورائي.

الرجال الغرباء غادروا المكان. رحلوا.

انتظرت دقائق أكثر لأضمن عدم عودتهم.

بعد ساعة كنت أستقل سيارة أجرة متجهة بها إلى الحجر الأسود.

* * *

وجدت عادل متكوراً على نفسه في زاوية الغرفة. رفع رأسه ونظر إلي بعينين دامعتين، ووجه أصفر. نظر إلي، وهوى برأسه إلى الحائط، وأخذ نفساً عميقاً. اندفعت إليه، ورميت جسدي في حضنه ثم بدأت أنشج. لم يتفوه بحرف. لكنه بدأ البكاء معي، وهو يضمني إلى صدره ويتشمم رائحتي مصدراً صوتاً شبيهاً بصوت ذئب وحيد في ليلة مقمرة:

- لو لم تعودي، لمت حتماً؟

نظر في عيني وهو يدخل أعماقي عبر تلك الفتحتين الصغيرتين المطلتين على روحي. قربني من وجهه، وأخذ شفتي بشفتيه، واحترقت معه. كل ما في جسدي من خلايا تركزت بين الشفاه الأربعة. أنوثتي عادت شيئاً فشيئاً إلى عروقي اليابسة، وجسده الذي حلمت به طويلاً تداخل مع جسدي. تكورت في حضنه، وما انفك يزرع في شفتي ملايين الضحكات. لا أدري كم استغرق ذلك ولكنها كانت الأبدية الخالدة بالنسبة لي. كنت أشعر بانتمائي لهذا الرجل، كان الامتداد لانتماء شعرت به اتجاه جدتي وأمي.

كنت قبلة بحجم شموس المجرات الغامضة.

فتحت عيني ونظرت إليه.

خلت أنني أعود من عصور ماضية وموغلة في التاريخ. جنية من تلك الأساطير التي تلون مخيلتي في الليل والنهار. الدغدغة التي ارتجف لها قلبي جعلت من روحي فراشة من نار. لم أستطع الحراك وخلت أني أفقد وعيي. رأسي منتفخ بالنار وأطرافي ترتجف. عادل بدا خائفاً مما حدث، ضمني إليه ثانية وهمس: نامي، في الصباح سنتحدث. هل ألقي القبض على الرجل؟

- نعم. بالكاد أجبته، وهوى رأسي إلى صدره.

هي الإشارات الأولى لإحساسي بجسدي وتحولاته مع رجل حياتي الحقيقي، هذه التحولات التي وقفت بوجهها دوماً تنبيهات أمي وأنينها تحت جسد أبي، والخوف من ذلك الكائن المسمى رجلاً، والذي لم يسبب لي على الدوام سوى الألم والخوف منه ومن تصرفاته القاسية. مرمية في حضن عادل، استعدت ثقتي بهذا الكائن ورحت أحلم بتجلياته الجديدة في حياتي المقبلة. ذلك المساء شممت رائحة البحر، ورأيت نفسي ممسكة يد جدتي وهي تروي مغامراتها مع جدي في الأيام الغابرة. حدثتها من هو عادل الذي أنام كل ليلة بين ذراعيه، وكيف صار لي لحظة الأمان الأول بعد خروجي من ماء الرحم، وبداية التوثب لدخول عوالم المرأة.

تلك المطاردة جعلتني أرتمي في الفرش لعدة أيام غائبة بين الحلم واليقظة.

دخلت في عالم الهذيان، ورأيت الكلاب السوداء تطاردني. كلاب تخرج من بالات التبغ وتعوي في طريق ملفوف بأشجار السرو. كان ظمأ قاتل يرميني أرضاً على الحافة، من ورائي الكلاب ومن أمامي الهاوية.

أسقط في الهاوية وأفيق على ماء يبلل جسدي، ويد جارتنا أميرة، التي تبكي فوق رأسي. استغربت وجودها الدائم وغياب عادل. استطعت النهوض بعد يومين. سألتها عنه. لم تعطني جواباً.. وقالت إنه يخرج منذ الصباح ولا يعود حتى المساء، ثم أضافت: أخوك هذا ذو تكشيرة دائمة، الله يعينك عليه.

هذا ما كنت أود سماعه منها. فرحت، وجلست في مكاني. أحسست بأن هذه المخلوقة طيبة، وأن عادل كان على حق، وأنه يجب علي أن أخجل من نفسي للطريقة التي أفكر بها. طلبت منها أن تبقى حتى المساء معي، لكنها نظرت إلي باستغراب وهي تغالب نعاسها: وهل تظنين أنني تركتك لحظة واحدة؟ قربت وجهها من وجهي، وتابعت: يا صغيرتي نحن وحيدتان، تماماً.

إذن فهي تعرف، أني لست أخت عادل، ومع ذلك لم تحاول القيام بأي خطوة سيئة. سيجن جنون عادل، وربما يسعى لتغيير الغرفة، هكذا فكرت.

أخبرت عادل في المساء عن الجارة، وشكوكي في أنها تعرف ما يدور بيننا. همهم ببرودة:

- كنت أتوقع ذلك.. المهم، عليك أن تعودي إلى عملك غداً، وإلا فإن صاحب المعمل سيأتي بفتاة أخرى.
- فتاة أخرى، لماذا؟ مجرد غياب عدة أيام؟ ألم يعرف بأني مريضة. هكذا ببساطة يستغني عني؟
- ببساطة؟ وهل تظنين أنه سينتظر حتى تتعافي، ويدفع لك تعويض مرض؟ أم أنه سيأتي إليك بالورود طالباً منك الإسراع في العودة للعمل؟

نمت لهجته عن سخرية واضحة. هذا الشكل من التناقض في تعامله معي لا أفهمه، ينظر إلي ويلقي علي محاضرة في ضرورة العمل بدأب، والدراسة ليل نهار حتى أتمكن دخول فرع جيد في الجامعة. قال إن كانت رغبتي في دراسة الحقوق، فعلي الكف عن التذمر والنق كالضفادع، والانتباه لدراستي. لم يتطرق للحديث عن الملاحقة. رفض أن أقوم بأي حركة أخرى سوى الدراسة والالتزام بالعمل. كنت سأنفجر في وجهه، وسأصفعه إن حاول وضع نفسه في دور الأخ الكبير المسؤول عني. تجاهلت لهجته في الحديث، وتركته في الغرفة، ورحت أبكي في المطبخ، بينما شموس تلك القبلة ما زالت معششة في روحي.

خرجت مبكرة إلى العمل.

نسوة المعمل استقبلنني بحفلة صغيرة من الغناء والهرج والمرج. سميحة وافتخار وأم سعيد وعليا وأخريات. كن دائماً يخففن عني التعب اليومي في المعمل، على الرغم من فقرهن والمصائب التي تعيشها كل واحدة منهن. لم يتوانين لحظة عن التعامل معي كطفل صغير يجب الاعتناء به. لا أدري إن كان في مظهري الخارجي ما يدعو للرثاء، أم أن الأمر متعلق بإنسانيتهن العالية. تذكرت أنني اعتبرت أم علي الخادمة التي كانت تأتي يومياً لتنظيف بيتنا، كائناً هلامياً لا وجود له إلا كباقي أدوات التنظيف الملقاة في المطبخ. هل كتب علي أن أعيش كما يعشن حتى أفهم كم هن على درجة عالية من الإنسانية؟ تساءلت في ذلك اليوم وأنا أعود من المعمل، محبطة من نفسي ومن عادل ومن كل ما يحيط بي، وتمنيت لو أني حفرت حفرة إلى جانب قبر أمي وألقيت نفسي فيها.

الضجيج من حولي. روائح البشر المنفرة ثقيلة على صدري. الكتب تنتظرني في البيت، دروس الفلسفة بدت مضجرة.

ما الذي حل بي؟ وهل هذا ما أردته حقاً؟ هل هذه دمشق الحلم.. بداية الحلم، وتلك العوالم التي أدخلني إليها عادل فجأة وأخرجني منها عندما أراد ذلك، هل أنتمي إليها حقيقة؟ والآن بعد أن لامستها، ما الذي تغير في حياتي وأفكاري؟ هل تحول العالم كما أريد فعلاً؟ وعندما سأدخل الجامعة ما الذي سيتغير من حياتي، وأنا هنا حبيسة حب رجل، لا أستطيع التصرف أمامه بحقيقية؟ وهو، أليس جباناً بما يكفي ليفرك عضوه، وأنا أنام إلى جانبه؟ ومن أعطاه ذلك الحق بتقبيلي تلك القبلة المميتة ثم الانسحاب؟ هل سأكون أمامه كالبلهاء أتلقى تصرفاته فقط، ولا يكون لي أي وجود ومبادرة؟ ألم أشعر على الدوام أنني لم أخلق لأكون كغيري وأن علي التصرف بحرية؟ كل ما أقوم به هو الضغط على روحي وحساب تصرفاتي تماماً كما يفكر بها الآخرون، لا كما أفكر فيها وأحسها وأرغب في القيام بها. ما الذي يضيرني لو تصرفت دون أن أدخل في حساباتي ردود أفعال الآخر؟ الست مزيفة لأنني تصرفت على أساس ردات الفعل هذه؟

الكثير من الأسئلة والدوامات جعلت رأسي يعج بالصداع والألم.

تناولت حبتين من الدواء المسكن لآلام الرأس.

كرهت كل من حولي في تلك اللحظات، الجارة أميرة، البيت، الطيور، عادل، وحتى الحرية التي حلمت بها. كرهت القيد الذي كنت أمارسه على نفسي وإحساسي أن الحرية لا علاقة لها بالمكان الذي أعيش فيه. لقد كنت غير حرة، وكنت موبوءة بالأفكار التي اعتقدت أني أحاربها. وجدتني محاطة بضيق الأفق وعدم إمكانية إمساك اللحظات القريبة من الروح. في نهاية الأمر يكون علي أن أعود إلى تلك الشرنقة التي تحكم تصرفاتي، وتجعلني لا أشعر بأي أهمية لهروبي وانفلاتي الذي اعتقدت أنه سيجعلني أمسك خيط الحياة من بدايته، لأصنع حياة مختلفة عن باقي الفتيات.

آلام الرأس لم تفارقني، وأنا أحاول التظاهر بالدراسة. سأل عادل إن كنت في حاجة للمساعدة. شكرته، وأكدت له أن من الأفضل أن أدرس وحدي. بدا مستغرباً من تصرفاتي، ولكنه تركني، وانشغل بقراءاته. هل أنفجر في وجهه وأخبره أني سأترك الغرفة؟ لا أدري. لم التمعت الفكرة في رأسي تلك اللحظة؟ لن أبقى قربه. سأنتهي من امتحان الثانوية، أعمل مساء، وأسكن وحدي. من الآن فصاعداً سأتدبر أموري وحدي. قبل ذلك سأنال الشهادة الثانوية ليتسنى لي الدراسة في الجامعة. وأنا أقرأ كنت أخطط لما سأقوم به، غفوت والكتاب

في يدي، ولم أصح إلا على ذلك اللهاث المعتاد، والذي لم يسبب لي في تلك الليلة سوى الغضب الشديد.

كان علي مواجهة عادل، ووضعه أمام نفسه.

أي قوة حركت رجلي وأنا أقوم من فراشي وأتجه إلى الحمام. سأراه بعيني. وسأدعه يراني، فكرت وصارت تلك اللحظات دهراً. الشجاعة التي تملكتني، هي الشجاعة ذاتها التي دمرت حياتي.

فتحت الباب. عادل كان في حالة ذهول ودهشة وهو يراني محملقة في نصفه السفلي. يده تحاول الاختباء، جبينه متعرق، جسده مترنح، عضلات وجهه تتقلص، والخيبة، أكبر خيبة رأيتها في عيني إنسان، ثم النهوض المفاجئ. لم يقم بأي حركة بعد ذلك، سوى أنه تسمر أمامي. لبثنا متلاصقين. عيناه في عيني، ثم أنسل من أمامي وهو يرفع سرواله. استدار وصفعني على وجهي، دون أن ترف عيناه. انتظر ما سأقوم به، ولكني لم أحرك ساكناً، انتبه إلى أنه ما يزال نصف عار. صرخت به:

- جبان.

اندفعت نحو الغرفة. كل ما في يغلي. اندسست تحت الغطاء وأحسست بالخجل الشديد مما حدث. كنت أريد أن أصاب بالعمى، فلا ألحظ عينيه. لماذا أردته أن يعرف أنني أعلم بما يفعل؟ هل أردته أن يدرك، أنني لست صغيرة كما يظن؟ كان علي أن أخبره أنني أقوم بالفعل ذاته وأنا أحترق بلهاثه؟ لقد كنت أجبن من ذلك، ولكني وضعته في المكان نفسه الذي لا أريد أن أضع نفسي فيه. كانت الأرض كبيرة جداً وأنا فيها كالقزم الصغير، تلف بي.. عيناه وهما مصابتان بالدهشة، زرعتا في صدري دوامات من الضياع. لم أنتبه إلا ويده ترفع الغطاء عن وجهي، كنت أغطي عيني بيدي. نور طفلة السماء تلعنني. طفلة الأرض تقول: عليه أن يعرف حقيقة مشاعرك ورغباتك. تنهرني بشدة وتصرخ طفلة السماء: أغمضي عينيك، أي عار ارتكبت؟ أنت عاهرة، كوني ابنة أمك كما أرادت لك.

أمسك عادل بيدي وهو يحاول إبعادهما عن عيني، لكني لم أدع له فرصة لذلك. قال:

- تابعي ما تريدين قوله، أنا جبان، وماذا بعد، ما الذي تعرفينه عن الجبن والشجاعة؟ لأني لم أضاجعك؟ هل كان يجب أن أفعل ذلك لأكون رجلاً؟ لا تحاولي التحدث مطلقاً عن الحرية، إياك، فأنت ابنة عائلتك بامتياز، ابنة الموروث

المتخلف من الأحكام الجاهزة في عقول البشر. الرجولة، الشجاعة، الفحولة..؟ ألم تسألي نفسك رغم معرفتك برغبتي فيك وحبي لك لم تصرفت على هذا النحو؟

عادل يتكلم مثل شلال ضاج بالكلمات:

- ها أنت خائفة، كيف تجرؤين على اقتحام خصوصيتي، هل تظنين أني لا أسمعك ليلاً أيضاً؟

ظل يتحدث ويتحدث، ونور طفلة السماء تلعنني في حيواتي السابقة والقادمة. لقد كان يسمعني إذن، ونحن متواطئان، وربما كان ينتظر سماعي ليبدأ نشوته، يا للعار. توقف قليلاً عن الكلام وراح يتنفس بصعوبة. لم أفتح عيني، وعاد إلى صراخه:

- افتحي عينيك، دعيني أرى خجلك من نفسك، ألا ترغبين أنت في جسدي، ألم تفعلي الشيء ذاته؟ لماذا لم تحاولي أن تعلني ذلك؟ هل قلت إنك فتاة جبانة، ألم أصمت وأترك لك حرية التصرف بروحك وجسدك كما تريدين؟ ألم أعاملك كما أعامل روحي. تلك القبلة، أحسست بالخوف منها لأني قد أكون دفعتك لقبلة لم ترغبي فيها. هل أستطيع استغلال حقيقة أنك موجودة معي في الغرفة نفسها، لأمارس الجنس معك؟ لو كان الظرف مختلفاً.. فقط، أنا أحترق..

صرخ عالياً بجملته الأخيرة ونهض من جانبي. فتحت عيني قليلاً، كي أرى رأسه الناهض إلى السماء واختلاجات العروق على رقبته. ابتعد عن فراشي وأرخى جسده بعشوائية على الأرض وانزلق في زاوية ضيقة من الغرفة. نظر إلي، فأغمضت عيني بخوف. ما الذي فعلته بهذا الرجل، وأي حماقة دفعتني لذلك؟ كنت أريد جره إلى مواجهتي بحقيقة ما يحدث، ولم أجد طريقة أقل إيلاماً من ذلك. يا لفظاعتي، خجلي من نفسي وإحساسي بالعار جعلاني أرتجف لقوله:

- لقد أحببتك كما لم أحب امرأة من قبل.

تكور حول نفسه وأنا أراقبه بعيني نصف المغمضتين، وبدأ يبكي. لو يتوقف قلبي عن الخفقان. لو يحدث أي شيء في العالم يوقف دموعه، وحزنه. لم أكن أتوقع ردة فعله هذه. هل انتظرت منه أن يفعل مثلما فعل الآخرون، أبي وابن عمي وسالم؟ كان يبكي وكأن دموعه تنتشر في المحيطات، تاركاً لروحه حرية الإبحار.

طفل فقد براءته الأولى ورحل صوب الحزن.

الإحساس بالقرف من الوجود الذي لم أقرره. إني أعيش بسببه حياة لم أتصور أني أفكر بها. لقد كنت متماثلة معهم، عائلتي وأهالي القرية والبشر المجتمعين في الشارع وعلى الأرصفة وفي المحلات التجارية والمزروعين في الحافلات. لا يفصلني عنهم سوى ذلك الوهم الذي زرعته من خلال هروبي. الانفصال عن المكان، جعلني أدرك أنه ليس من السهل الانسلاخ عما أرفضه ومن الصعب أن أكون حقيقية معه.

عادل غارق في بحاره. حبوت باتجاهه، وكانت أولى خطواتي في اتجاه نفسي. حملت ثقل جسدي ورغبتي في الزوال، ورحت إليه. لم يلتفت إلى حركتي. يداه مضمومتان إلى قدميه وهو يحاول العودة إلى جنينيته والابتعاد عن الهواء في لحظة لاستقبال ماء الرحم. أرخيت وجهي على قدميه الحافيتين، زرعت عيني بين أصابعه، ولثمتها. كانت دموعي أقوى مني، حاولت توجيه كلمة اعتذار. الكلام لم يعد تجدي نفعاً. أردت الاحتراق مع الأصابع التي أرعبتني فكرة زوالها. بدأت ألثم رجليه، وأحضنهما. أمسكني من رأسي ورفعه نحوه. عيناي في عينيه تكتشفان للمرة الأولى معنى الشوق، والتيه المتواصل لأنثى وذكر وجدا صدفة على الأرض. ذلك التيه عاد للعواء ثانية في جسدينا. قربني أكثر، وهو ينظر بحدة في عيني:

- كنت أخاف من تلك اللحظة أن لا تكون لحظة حرية بالنسبة لك. أردت لجسدك الحرية الكاملة في حب جسدي. في معرفتك الأولى لجسدي عليك أن تكوني صافية، طاهرة وكأنك معمدة بنبيذ مسيحك الذي تحلمين به. نشوتك البكر معي عليها التحليق في عوالم غريبة. خفت أن يكون وجودنا ككائنين محرمين على بعضنا البعض منذ مئات السنين هو ما سيدفعنا لفعل الجنس. أردتك أن تكوني لي بحريتك، وعندما تبتعدين عني وتجدين لك حياة منفصلة ومستقلة عندها تأتين إلي لأنك تريدينني. خفت على تلك اللحظة وجمالها، فلا يأتي يوم وتشعرين بالندم.

صمت بغصة وهو يخفض عينيه. أحسست بدفق حب يحرقني، كدت أطير من السعادة وأنا أرى الحب الذي طالما حلمت به يجرفني نحو الفرح، الفرح الحقيقي الذي لم أعتده، قلت:

- ولكني أحبك، أحبك كما لم أحب بشراً قط، ولن أعيش بدونك. أرغب فيك. لا يعنيني كيف يفكر الآخرون، ولا تعنيني تلك اللحظات التي سأفكر فيها فيما بعد. جسدي يريدك. قلبي حزني وفرحي كل ما يحيط بي ككائن، يريدك. كنت تسمع لهاثي، ولم تحرك ساكناً. لماذا لم تساعدني على أن أكون مختلفة؟ ما الفرق بين

أن تنام معي، وأن تفعل ذلك؟ أنا في جهة وأنت في جهة. ما ينقصنا هو التماس، الخيالات نفسها حتى لحظة نشوتك هي لحظتي. ما الفرق إذن؟ هل تعتقد أني حبيسة جسدي فقط؟ لم أعد صغيرة، ووجودي معك في المكان نفسه لا علاقة له بمشاعري. أريدك أنت، وكل ما سيحدث بعد ذلك لا يعنيني. لنع التجربة تحدد ما نريده.

- كان مذهولاً من طريقتي في الكلام. لم يعتقد أني سأكون قادرة على الحديث بهذه القوة. بدا رجلاً مفتوناً وحالماً وهو يغطيني بعينيه الواسعتين. كورت جسدي في حضنه، وأنا أهمس: آسفة لما سببته لك من ألم و..

لم يدعني أكمل جملتي.

أخذني بشفتيه قائلاً: تتكلمين حين لا ينفع الكلام.

تهت في قبلته الثانية، حالمة بتضاريس روحه وأفكاره التي جعلتني أتدفق بالحب.

* * *

الهستيريا التي أصابت أميرة في أحد الصباحات أربكتني. لم أعرف كيف أتصرف معها. كانت تهذي عن خوفها وعن الرجال الذين يسعون إليها بأموالهم، يمنحونها إياها بعد ليلة في فراشها. صارت تسب وتلعن والدها وهي ممسكة بيدي، رافضة مغادرة الغرفة. حاولت إقناعها بضرورة ذهابي، لكنها رمت نفسها باكية بين ذراعي، وطلبت مني البقاء معها. أي حزن غزاني فجأة، وتلك المرأة تستنجد بي للبقاء قربها، وعدم تركها وحيدة بين جدران أربعة. إذا لم أذهب إلى المعمل، قد يطردني صاحبه، خاصة أنني سأتغيب في الأيام القادمة بسبب الامتحان. ولكني لا أستطيع تركها وحيدة. قررت أخيراً البقاء قربها ريثما يأتي عادل. عادت أميرة للحديث ثانية عن حياتها: نشأت بنتاً، خجولة، ذات أطراف نحيلة، ومسحة من الكآبة لم تفارق وجهها. دخلت المدرسة لسنوات عدة، ثم تركتها بعد ذلك لتتغير حياتها كلياً. بالإضافة إلى الخوف المزروع في صدرها من والدها ذي اللحية الطويلة البيضاء، والسبحة الخمرية، صار يتوجب عليها وضع حجاب والتصرف كامرأة ناضجة. لم تشعر بأي مشكلة عندما فعلت ذلك وهي لم تبلغ العاشرة بعد. أعطاها الحجاب أهمية أكبر بين رفيقاتها السافرات. صار كل من حولها يعاملها بطريقة أفضل. حتى والدها، كسبت وده، من

خلال نظراته المتفحصة لها. تعلمت إخفاء كل ما يبدو من جسدها أمام الرجال. ثمة سكينة وطمأنينة عميقتان، حملتاها على نهر من السعادة. بعد مرور عدة أشهر على وضع الحجاب خاب أملها، وعاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي، وجب عليها إيجاد لعبة جديدة تلهي بها روحها. لم يعد مسموحاً لها الخروج إلى الحارة واللعب مع الأولاد. حتى حركتها ضمن البيت، صارت بطيئة. وعدا الأعمال التي كانت تقوم بها لمساعدة أمها في المنزل، وواجباتها المدرسية غير المهمة، لم تكن تشعر أنها موجودة. أخواتها بدون مثلها، كل واحدة غريبة عن الأخرى ولا تجمعهن إلا الأوقات الخاصة بالأكل والصلاة والذهاب إلى المدرسة لم يكن في حياتها ما يثير الانتباه. حدود حركتها صارت تضيق، كلما تقدمت في العمر. في الثالثة عشرة، أحست بالوحدة القاتلة، وبأن العالم كله يتركز في تلك الغرف الصغيرة التي كانت تقوم بتنظيفها يومياً. على الرغم من أن جسدها بدأ تحولاته الصارخة التي جعلت من حياتها جحيماً لا يطاق. إلا أن حادثاً حدث لها ذات ليلة، غير من حياتها وجعلها تشعر بالفرح الغامر عندما عرفت أنها ستتزوج. الغرفة الصغيرة التي تنحشر فيها مع أخواتها الخمس، بعيداً عن الذكور، كما قضيت تعاليم والدها، كانت خانقة بما يكفي لأن تشعر بالضيق كلما هوت برأسها على المخدة ليس ذلك فحسب، يد أختها الملساء وهي تمتد إلى جسدها، وتعبث بفخذيها ونهديها الصغيرين، كانت كافية لرسم الخوف من قدوم الليل.

انتدت اليد إلى الفخذين في إحدى الليالي، وأحست أميرة بحرقة تعتري جسدها. أصابع أختها تكويها. ارتجفت. بدأ جذعها السفلي يتلوى. هوى جسد فوقها. أخذت أختها باللهاث والأنين. عرتها من ثيابها، وبدا نهداها في الظلام الخافت قمرين صغيرين. أخذت الأخت حلمة النهد الصغيرة بشفتيها. انتفضت أميرة وسرت رجفة خانقة في عروقها. همست الأخت: لا تخافي.

وكانت أميرة تصمت مع لذتها الخجولة. تعبث أصابع. وتداعب. تباعد أميرة ما بين فخذيها وتتأوه. تكتم الأخت الكبيرة أنفاس أميرة بيدها، وتهمس: لا تصدري أي صوت، ربما يستسقظون.

تعلمت فنون الجسد ومكمن اللذة، وصارت توقظ أختها ليلاً لتلعبا معاً تلك اللعبة السرية والمسلية.

في تلك اللحظات، وكما روت أميرة، كبر في داخلها ذلك ٱحساس بالعجز عن الحركة أمام ما يحدث من حولها. تشعر بالتشوش بين ما يحدث سراً وما يقال علناً، وكل ما حاولت فعله هو أن تأمن جانب السلامة من أبيها ومن الأخت الكبرى، وبعد ذلك من الناس جميعاً. اللذة، الكنز المكتشف داخل الجسد، وذلك التواطؤ مع أختها من أجل خلق حياة تشعر بالانتماء إليها. شعرت باللذة وهي تمارس الدور الأكبر في العملية، أختها تنام على ظهرها وهي تعبث بجسدها، تسرح وتمرح فيه. تحلق في عوالم لم يسمح لها يوماً بالاقتراب منها. اللذة الوحيدة التي شدتها إلى تلك الممارسات هي الحرقة الغامضة الكامنة في عمق جسدها، وفي مكان لم تفهم ماهيته. الصمت والنشيج وبلوغ الذروة بصمت. الصمت الذي أدمنته لاحقاً في ارتعاشاتها مع رجال كانت تعاشرهم. تطلب منهم على الدوام الانتهاء منها بسرعة، ثم مداعبة بظهرها. تماماً كما فعلت أختها.

تخيلت الكثير من النساء العاريات اللواتي يمارسن الجنس في غرف مغلقة. ومسدلة الستائر ويضعن فوق رؤوسهن أغطية سوداء، يكتمن تأوهاتهن، وينشجن بصمت عندما تقدم إحداهن على إيلاج إصبعها في فرج الأخرى خائفة من اختراق غشاء البكارة. ينتهين من رغباتهن ثم يلتحفن بجلابيبهن السوداء ويمضين على مخادعهن وسط أهلن بحفظ شرفهن.

هل هذا ما كانت عليه حال أميرة وأخواتها الخائفات من أبيهن، والمتواطئات معه على التزام الصمت خوفاً من الفضيحة أمام الناس؟ تلك الرعشات الخانقة لبحة أنثوية تحت لحاف محرم، العيون الخائفة من فتح الباب ليلاً، وتمطي عمامة الأب الخائف على تلك الرعشات من الضياع هباء دون ثمن. لقد دفع ثمن ذلك الجسد الذي خرج منه ذات يوم كسائل أبيض وحوله إلى تلك الكنوز التي يجب أن يجني ثمارها. هو من زرع، وهو من يحصد. هو المنتج الوحيد لتلك البضاعة المطلوبة دائماً، وله وحده حق التصرف فيها.

صورة الجسدين الأنثويين المتداخلين تشعرني بأن الأرض مقلوبة رأساً على عقب، وبأنني سأتقيأ ما في جوفي من فكرة تحول القبل والأشواق الجسدية الحارقة لجسد عادل إلى مجرد هذيان رغبات يمكن إطفاؤه بأي وسيلة.

سألتني أميرة أيضاً، عما يعنيه أن ترتعش المرأة من خلال احتكاك عضو الرجل داخلها؟ شعرت بالارتباك، وأكدت لها أني لم أعرف رجلاً من قبل. لم تصدقني ولعنتني. أصبحت تصرفاتها هستيرية، ولسانها يتحرك بصعوبة. قامت من مكانها، واقتربت مني، وفحت في أذني، بعد أن أمسكت نهدي بقوة، وعصرتهما:

- وهاتان، هل تنامان وحيدتين؟

ابتعدت عنها خائفة وتراءت أمامي صورة الأخت الكبرى وأميرة تحت جسدها العاري. تحولت أميرة في لحظة إلى كائن مختلف. مدت لسانها نحو وجهي، وحاولت أصابعها تمزيق ثيابي. تجمدت وأنا أراها تهوي فوق جسدي، وتطبق شفتيها على شفتي. شممت رائحة تبغ عفن في مخزن مظلم، وسمعت دبيب حشرات، وخلت أن أميرة ستقذف بهذه الحشرات في فمي، مع لعابها الذي حاولت به ترطيب شفتي، وهي تخور كالبقرة. لهاثها يطن في أذني، نفس ذلك الطنين الصادر عن خوفي في مخزن التبغ بينما ابن عمي يفك سرواله، وأما مرمية كخرقة بين بالات التبغ. رأيت أصابع الطبيب المتوحشة وهي تثبي فخذي على القطع المعدنية، أصابع تكبر وتغطي شاشة عيني، لماذا ينتهي الجميع إلى ذلك المكان الصغير؟ لماذا يخاف البشر من المخفي تحت ثيابهم؟ يتجنبون الحديث عنه، لكنهم معلقون به، كخطاف أبدي من العذاب.

رفستها في بطنها، وصرخت طالبة منها الخروج. صرت أضربها وثقلها يؤلمني. لم تتحمل ضرباتي القوية، وقامت عني وهي تمسح فمها بكمها. ارتمت على ظهرها وشمرت عن فستانها. بدا فخذاها السمراوان، تحت ضوء الغرفة الخافت مصقولتين ومنسابتين من جذعها كعمودي رخام أسودين. مدت يدها تحت سروالها الداخلي وبدأت تحركها بهدوء، ولم يبد مما تفعله سوى الارتفاع والانخفاض لبياض سروالها، صرخت:

- أخرجي من غرفتي.
- ألا تجدين ذلك ممتعاً؟ ألا تقومين بهذا يومياً أنت وصديقك البائس؟ إن ذلك ليس عيباً صدقيني. ألا تخافين النوم مع الرجال؟ أنا لست رجلاً لن اخترق بكارتك،

لكنني أستطيع فعل ذلك بإصبعي إن أردت. أطلقت ضحكة مبحوحة، لم أستطع الإجابة عليها. تسمرت داخل خوفي من رائحة التوحش والغبار الخارج من رئتيها. قطيع وعول وحيدة في صحارى حجرية، مر أمامي.

أردت أن ألقي بغطاء على جسد أميرة، أن أمسد شعرها بحنو. أن أعود بها إلى الطفلة الصغيرة، وأجعلها تلعب مع صديقاتها في أزقة حارتها، وتكبر وتحب أحد الشبان. تغازله، ويقبلها ذات مساء تحت درج بيتهم. أردت أن آخذها من يدها إلى غرفتها وأدعها تنام بهدوء بعيداً عن أعين البشر، إلا أن ما صدر عني مخالف لكل ما أحسسته. بدأت أبكي بكاءً خافتاً.

قفزت أميرة نحوي وقد تغيرت ملامحها. تكورت في زاوية الغرفة كصرصور خائف من الدهس. خبأت رأسي بين ركبتي ورغبة محمومة تجتاحني للقفز خارج الجلد، وأميرة ترشني بالماء وتمسح رأسي بحزن: بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله. بسم الله.

تمتمت بعض الآيات القرآنية ومسحت رأسي.. تحولت في ثانية إلى امرأة أخرى، امرأة تقية بعينين خاشعتين ودامعتين، وهي تفرك جبهتي، بحنو. فستانها ما يزال مرفوعاً عن فخذيها وصوت تنفسها المختنق يزداد حدة. هذه المرأة لن تعيش طويلاً.

رأيت أسراباً من الجلابيب البيضاء تطير في الهواء، تاركة جسد أميرة يصعد عارياً نحو السماء وهو يندبه بالصراخ، والتأوهات الأنثوية.

أميرة قادتني من يدي. سرت وراءها مغمضة العينين، مضاءة الروح بسحر الحنان المتسرب من أصابعها والخدر الذي يبعثه حضن امرأة تنضح بالحزن.

نمت على فراش أميرة الأحمر المطرز بخيوط ذهبية، والمحاط بالوسائد والمناديل الشفافة الملونة التي تصنع وسطه خيمة صغيرة. كانت أميرة تنبش صندوقاً خشبياً، وتلهث أمامي محاولة أن تتكلم بهدوء وهي تبعثر صوراً من الصندوق. أنا مشوشة وأميرة طلبت مني الهدوء وعدم الخوف، لأنها لن تمسني بسوء. أقسمت أنها أحبتني. كل شيء يجري وكأنه عالم سحري متناقض من المشاعر والرغبات. الكره والخوف والغموض والحذر، والفضول أخيراً. أفرغت محتويات الصندوق أمامي، وهي تحكي بأنها ستجعلني أعرف العالم على حقيقته. كنت أتساءل دائماً عن سر التناقض الذي يغلف تصرفات أميرة، فهي رقيقة وقاسية آخر، تبدو كامرأة نبيلة أحياناً. وتتصرف بسوقية مفرطة أحياناً أخرى. ذكرى البنت التي كانتها يوماً والتي عاشت بسكينة وسلام، جعلتها تنتمي لها، وبهتان روحها أمام طغيان الجسد، ضمانتها

الوحيدة في العيش. في أحيان أخرى تنسى كل شيء إلا لغة البقاء المرتبطة ببيع بضاعتها الغالية، التي اكتشفها والدها ذات يوم.. واستطاع استثمارها لبعض الوقت قبل أن تخرج أميرة عن طاعته وتتصرف بها على النحو الذي يحلو لها. أخرجت من الصندوق صوراً كثيرة، وطلبت مني التدقيق في كل صورة بشكل جيد. كل صورة تحكي عن عالم واسع وكبير.

ما الذي خطر لها الآن وجعلها تفكر بإطلاعي على أسرارها؟

صور لفتيات بأشكال مختلفة. جميلات ومتوسطات الجمال. سمراوات وشقراوات، بعيون حزين، وعيون بليدة وعيون فارغة إلا من خيط الكحل الأسود الذي يرسمها. صور بالطول الكامل لنساء في الثلاثينات، مكتنزات وشاخصات أمام المصور وكأن الواحدة تريد الخروج من الصورة مباشرة إلى العالم المحسوس. صورة واحدة فقط جعلتني أرتبك. عينان زرقاوان لفتاة لم تتجاوز العشرين، لكنها تخبئ في جفونها رغبة قاتلة في البكاء والصراخ. أبعدت الصورة عني حتى لا انتفض بالبكاء. ناولتها بعض الصور، ثم أرخيت رأسي نحو الخلف وأغمضت عيني. كنت بحاجة إلى إغفاءة. صرخت: لماذا توقفت؟ بحيادية أجبت: لا يوجد شيء مهم. لا يوجد شيء مهم؟! اندفعت نحو الصور صارخة: هؤلاء الفتيات أهم من كل ما يحيط بك، إنهن بائسات، يوزعن صورهن هنا وهناك ليعشن.

حتى تلك اللحظة لم أكن قد استوعبت ما يجري.

- ألا ترين؟ هل أنت غبية؟ ألا تعرفين ما الذي يعنيه وجود هذه الصور عندي؟

أنا أعرض هذه الصور على الرجال، وهم يقومون بانتقاء ما يريدون، ويدفع لي الواحد منهم نصف المبلغ وأعطي الباقي للفتاة.

ببلاهة سألتها: وأين يلتقيها؟ أجابت بسخرية: أين يعني؟! في بيتي طبعاً.. هل تعتقدين أنني لا أملك بيتاً، أملك بيتين كبيرين وفاخرين يا حبوبة.. ستسألين لماذا أسكن هذه الغرفة. وسأقول لك.. أصول المهنة.

- يعني أنت قوادة؟
- عفواً. عفواً.. انتبهي! أنا أعمل، أقرب بين الناس وأمنحهم ما يحتاجون إليه. أمنح الفتيات المال، والرجال الرجال الجنس.
- كنت أشفق عليك وأعتقد أنك بائسة ومحرومة.

أطلقت ضحكة مجلجلة، ساخرة، واقتربت مني ثم عادت لطريقتها الأولى في الكلام وهي تفح في أذني:

- لماذا لا تشفقين على نفسك، وعلى العجوز الذي تعيشين معه؟

قامت من مكانها ودست يدها تحت الفراش ثم انتزعت صورة كبيرة، محاطة بإطار ذهبي فاخر، وكأنها تريني شيئاً غالياً يرتدي لباساً عسكرياً ويضع الكثير من الأوسمة على صدره، وتبدو أميرة فتاة فائقة الجمال إلى جانبه. قربت الصورة من وجهي. ألصقتها بأنفي. قالت بصوت واثق:

- أترين هذا الرجل، إنه يحكم مئات الرجال، وهو هنا مرمي بين أحضاني. يستطيع أن يحميك أيضاً، لا يبخل علي بشيء. وأنا لا أستطيع أن أرد له طلباً. رقبتي معلقة بين يديه، أنظري.. انظري إليه. ألا يبدو كالأمراء..

بدت أميرة وكأن العالم يتجمع بين يديها. كانت تنظر إلي، وإلى الصورة، تلك النظرات الجريحة لامرأة ما اعتادت الكبرياء أبداً ولكنها تتوهمه. تمعنت في الصورة جيداً، شعرت بأني أعرف هذا الرجل. قامت أميرة من مكانها وعلقت الصورة على الجدار، وبسرعة أحاطت كتفي وهمست:

- معي ستكونين في أمان، لأني أضع القوة في يدي، هل تعرفين لماذا تعرفين سري؟ أشارت إلى الصورة، وهي تتمايل أمامي قائلة: يجب أن تشعري بالأمان معي، فأنا أستطيع حمايتك. ابقي معي، ذلك العجوز لن يحميك أبداً، أما أنا فسأرعاك.

حملقت فيها مذهولة وهي تتمتم بكلام غريب عن الحب وعن حاجتها إلى وجودي معها . صمتت قليلاً ثم انتفضت باكية: لن أدع أحداً يمسك بسوء. ستكونين لي، لي وحدي فقط، ما رأيك؟

تحدثت طويلاً وهي تمرر عينيها على جسدي، وكنت أتحين الفرصة للخروج من غرفتها. سأحك جسدي من الأوساخ التي ظهرت فجأة من كل مسام جلدي. حاولت الصراخ في وجهها، لكن لم يخرج مني أي صوت، ولم أستطع الحراك.

عدت لخوفي السابق وتخيلت أن أبي يسمع كلام هذه المرأة، وأن عيني أمي تعاتباني بقسوة. أغمضت عيني، وجللتني ارتعاشات جسدي الذي بدأ يغيب عن العالم.

* * *

عمل عادل جاهداً في الأيام اللاحقة، كي يجعلني أخرج من حالة الاسترخاء والكسل وعدم الرغبة في القيام بأي شيء.

بقيت فترة طويلة وأنا في حالة ذهول.

شاهدت خلالها أحلاماً غريبة. شاهدت قرى تمشي بأحذية من رمل، ومخازن تبغ تحترق في السماء، وكنت استيقظ على وجع بين فخذي. طلبت من عادل أن يعيدني إلى أمي. مسح رأسي بيده ووعدني بأنه سيفعل ما أن أتعافى. صرخت في وجهه بأن أمي ميتة، وبأنه رجل كاذب مثل سالم، ومثل أبي وابن عمي. ويشبه جميع البشر المحنطين، والملتصقين بوجودي الزائف. قلت له إن أبي لن يسامحني أبداً، وهو يمسك بيد علي، يجوبان شوارع دمشق شارعاً شارعاً لخطفا روحي ويلقيا بها في الظلام.

بعد أيام من الهلوسة والتعرق والحمى الشديدة، تعافيت. طلبت منه أن يحضر لي كتبي. نظر مذهولاً لغرابة تصرفاتي التي لم أكن أنا أيضاً أفهم معناها.. أخبرني أن موعد تقديم الامتحانات بعد أسبوع. قفزت من فراشي باكية. ينبغي علي تقديم الامتحان.

بقي إلى جانبي يقرأ معي الكتب المدرسية كلمة كلمة. ذهب معي إلى القاعة وانتظرني أمام باب المدرسة، وأعادني كطفل صغير على الغرفة. لا أدري كيف مرت تلك الأيام، ولم أفهم الاندفاعات التي دعتني دائماً أتغلب على كل ما صادفته في حياتي من متاعب. شعرت أني وجدت لأكون أنا نفسي، فتاة تفكر وتشعر كما تريد وكما تقرر. حاولت أن أصنع مما يحيط بي مساحة جديدة لمبررات وجودي التي شعرت منذ طفولتي بأنها لم تكن كافية لتقنعني بمواصلة العيش مع هذا القطيع المتراكم من البشر. لم اشعر بانتمائي إليه مطلقاً منذ اللحظة التي بدأت يدا أبي وأعمامي بتمزيق جسدي. عادل هو غير حياتي بعد ذلك، كان يلهث وراء أفكاري، ويراقب أدق التفاصيل في يومياتي، ويأخذ دور الأم والأب والحبيب. يتحرك في الغرفة بخفة، ويرمقني بنظراته الحانية التي تشعرني بأنني أصيص نبات أخضر، غض، وهو يراقب نموه اليومي، باهتمام وخوف صرامة.

تجاهلت ما يحيط بي من حوادث وأشخاص، خوفي من أهلي، ملاحقة علي، وخيال أميرة التي اختفت بضعة أيام ثم عادت كما كانت من قبل، وكأن شيئاً لم يحدث بيننا. صرت أحييها بشكل عادي، ولكنني كنت أتحاشى الدخول معها في أي حديث. وهي ما انفكت وحتى

اللحظة الأخيرة تغدق علي هداياها الطريفة، السكاكر والشوكولا والكلاسين القطنية الملونة المخصصة للأطفال. تقدمها لي وهي تضحك، وتغمز بعينها، لأن هذه الكلاسين تليق بي وأني لن أستطيع في يوم من الأيام أن أكبر على مقاسها. لم تكف أبداً عن الحديث عن الرجل الذي يحميها ويحمي فتياتها. تظل أميرة تتملقني إلى أن ترى عادل في باحة البيت، فتهرب من أمامه وأمامي. الخوف الذي يجتمع في عينها يجعلني أشعر بالإشفاق عليها. ضبطتها تتلصص علي من النافذة عدة مرات. وحين تلتقي نظراتنا صدفة ألمح ذلك الاحمرار الجارح في بياض عينيها فأشعر وكأنها سكيناً اخترقت قلبي. أهرب من أمامها، وشعور غامض يجعل من مسام جسدي إبراً حادة تنطلق في اتجاه قلبي.

نسيت وجودها بعد فترة، وخاصة عندما بدأ عادل يذوي شيئاً فشيئاً.

حدث هذا بعد أن نجحت في شهادة البكالوريا بتقدير جيد.

من المطبخ سمعت صرخة عادل المدوية.

ركضت من الغرفة، وجدته يضع الراديو جنب أذنه ويحملق في الفراغ.

عيناه محمرتان لم ترايني وأنا أقترب منه وأهزه بعنف: عادل ما بك؟ لم يجبني، وتجاهل حتى الالتفات إلى وجهي. دموعه شرعت تنساب بهدوء على خديه. أطفأ الراديو وهمس: العراق اجتاح الكويت.

ما الذي يجري حولي؟ وكيف يحدث ذلك؟ وما الذي يعنيه؟

هل عشت كجرذ همه الاختباء والاختفاء عن العالم، ولم أكن أعير أهمية لما يحدث حولي؟ ترتيبات حياتي شغلتني، ولم أعد أفكر بما يحيط بي. وفي الأشهر الأخيرة جعل عادل مني كائن فضائي غريباً عن الأرض. لم أعرف أن حرباً ستقع أو حرباً وقعت، وأن الكثير من التشكيلات السياسية والاقتصادية الجديدة تظهر في البلاد العربية والعالم بأجمعه. كيف يجتاح العراق الكويت؟ منذ طفولتي علمونا أن للعرب عدو واحد هو إسرائيل. لم أكن اهتم بكل هذا لأني طالما انشغلت بانبعاثات روحي وتجلياتها وغربتها عن لبشر والهموم واللعنات التي رافقتي منذ الولادة، وحلت علي. روحي ماتزال تهوم في الفضاء، لأنني ابنة أمي سليلة النساء الملعونات بالحب واللواتي ينتهين أرواحاً غارقة في الظلمة.

ظل عادل يحملق ذاهلاً في الفراغ، وصوت الراديو يمضي وحيداً، غير عابئ بخد عادل المتوقد.

بكيت حبي الضائع الذي رأيته غيابه وأنا أحضر عادل في تلك اللحظات، وكان يتكوم فوق صدري بهدوء. يبكي تاريخاً نضالياً دفع حياته ثمناً له، وها هو يرى الانحدار المتسارع لأحلامه التي لم يطالب بها أحد، وظل ينتظرها بهدوء، كنبي عجوز وحكيم، ولكنه أخرق بفعل الزمن. بقي حتى الصباح وهو يحيط بجسدي، وبين الفينة والأخرى يفتح عينيه وينظر إلي ثم يعود لاغماضهما. كان جسدي يتحرك رغبة نسيت ما الذي يعنيه أن تقع حرب بين بلدين عربيين. لم أفكر بهول المصائب التي ستتلاحق على البلاد، والتي بدأت منذ زمن بعيد. أنفاسه ودموعه تحرمني من النوم، أو الإغفاء لحظة. تأملت جسده نصف العاري، وهو ممدد قربي. داعبته خصلات شعره البيضاء التي لونت صدري بنور إلهي بدأت أصابعي بالمرور على صدره، ثم على وجهه.

هذا الكائن هو رجلي، ومفتاح جسدي الأول الذي سيعلمني فنون الحب وإضاءات الجسد.

انحنيت فوق رأسه وقبلته من وجنتيه وأنا أستعيد نيران اندفاعتي البدائية في أول إحساس داهمني على حين غرة مع جسدي ورغبتي في التواصل مع ذكر ما. أنفاسي المتصاعدة وجسدي الذي تمدد وانفرج، جعلت عادل يستيقظ وكأنه شم رائحة أنوثتي التي فاحت من مسام جلدي. فتح عينيه وصليت أن لا يعود إلى إغماضهما. لم يغمضهما. انحنيت فوقه وأخذت شفتيه بشبق لم أعرفه يوماً. القبلة فجرت روحينا وجسدينا، فتهنا في العرس الذي طالما حلمنا به.

التعري الأول لتفاصيل الجسد المحموم بالذاكرة والرغبة يتسرب من أصابعه. نزع عني ثيابي وأخذ نهدي بشفتيه، تاركاً رأسه الأبيض ينوس بينهما شعرت أني أولد للمرة الألف داخل رجولته. كان قاسياً وناعماً كيوم مطري في مدن مشمسة. ازددت توهجاً ودخلت خارج البنت التي كنتها، البنت التي كانت يوماً منشطرة بين السماء والأرض. وضعت قدماً بين الغيوم وقدماً على اليابسة. إن للجسد مدارات غريبة، ودغدغات كانت تنقلني إلى الروح النوراني الذي أردته. الغيبوبة الكاملة عن المحسوس جاءتني دفعة واحدة فوق الفراش الصغير. كيف يتعامل البشر وع الجسد بتلك الطريقة المهينة؟ كيف يعاملون الجنس بذلك التقزز، وهو التجلي الأول لروح جديدة داخل الروح؟ أخذت كل رجولته وأعطيته أنوثتي كلها. عرفت سماء جديدة من السماوات السبع الغامضة. غصت في مدن رخامية وبلورية،

وكان هو يمنحني اللذة والخلود ويعيد لي هدوء روحي السابحة في غموض لم أفهمه يوماً، كان يحتويني بيديه السمراوين ويغمرني بخصلات شعره البيضاء، فتنتشر في دمي أجنحة الملائكة الصغيرة وترحل بي، بعيداً عن كل ما يحيط بي، كنت معلقة في منطقة غريبة على الحس، وغير مفهومة، لم أدخلها من قبل لكنها منحتني ولأول مرة منذ زمن بعيد الإحساس بالهدوء والأمان.

سمعت كثيراً عن الليلة الأولى للمرأة والرجل، وما يرافق تلك الليلة من تصورات مرعبة وخيالات عن أوجاع لا تنتهي، عندما يقوم الرجل بفض عذرية المرأة، لكن أياً من تلك الآلام لم أشعر بها. نسيت كل ما قيل وما سمعته عن جسد المرأة المرتجف في ليلتها الأولى. وكأني كنت منفصلة عن تاريخ النساء. بدأت أشعر أني لم أكن امتداداً لأمي وجدتي، في تلك اللحظة كنت موجودة فيه، وموجوداً فيّ، تلك اللحظة أثبتت ذلك جسدي يتمرد ويكبر إلى اللانهاية، تلك اللحظة التي شعرت فيها أن عادل هدأ بعد ارتعاشنا سوية، أحببت بقاءه متداخلاً مع أعضائي إلى الأبد. لقد منحني البقاء، وقذف في رحمي ماء الحياة.

بقعة دم حمراء توضعت على الفراش بكل أريحية، تمعنت فهيا طويلاً في الصباح.

لاحت لي مثل طيف، الأصابع البلاستيكية التي اغتصبتني في يوم من الأيام. هل تستأهل هذه البقعة الضئيلة من الدم كل ما حدث لي؟ وما الذي اختلف فيّ الآن؟ وقفت عارية، ونظرت إلى نفسي. لم ينقص شيء. ربما صار لوني زهرياً، ومددت يدي بين فخذي لأتحسسن الفرق بين ما كنته أمس وما صرته اليوم. أدخلت إصبعي، لا يوجد تغيير، هل هو ذلك الغشاء الرقيق الذي فصل جسدي عن عادل؟ لا أدري.

تخيلت أن المرأة تشبه زجاجة مياه غازية، وعلى المشتري قبل أن يشتريها التأكد من صلاحية إحكام إغلاقها حتى يتأكد من عدم فسادها. هذا الغطاء يشبه الغشاء الذي فقدته ليلة البارحة. ضحكت بصوت عال. تخيلت نفسي فاسدة تمشي بقدمين وتطلب من الآخرين شراءها. رأيت وجه ابن عمي وتعابيره وعضوه المنفوخ تحت سرواله، وهو يصوب بندقيته على الزجاجة التي هي أنا. تهرب الزجاجة من أمامه وتنزلق في محيط أزرق. تعالت ضحكاتي، فيما كان عادل يهذي عن الحرائق والحروب. عدت من الحمام، وجدت جسده مبللاً بالعرق واللهاث. وقفت متجمدة، وأنا ألمح شفتيه ترتجفان، وتتحولان نحو الأزرق.

أي صباح هذا!!

كنت أعد نفسي للخروج من الغرفة لسرقة بعض الياسمين المتدلي من البيوت المجاورة، وغسله من الغبار الذي يحيط بكل شيء هنا. ثم لصنع فنجان قهوة حلوة لعادل، فهو يحب القهوة صباحاً. كنت أفكر أن أفرش الياسمين على حواف الفنجان الأسود، وأن أجلسه في حضني وأجعله يرتشف الياسمين والقهوة بعد الحياة الجديدة التي قدمها لي بسخاء.. لم يخطر ببالي ما خربه حدث الاجتياح في داخل عادل، وما سيجلبه ذلك عليه من دمار. نسي ليلة البارحة، حاولت كثيراً حثه على الإحساس بما يحيط به إلا أنني فشلت. كنا أضبطه وهو يسند الراديو الصغير إلى أذنه. عيناه شبه مغمضتين وغائمتين. عادل الذي عرفته على الدوام.. رحل ولن يعود ثانية.

وكأن تلك الليلة أخذته مني إلى أقاصي بعيدة. اعتقدت أن ما حدث بيننا سيغيره، لكن عدم فهمي لما يحدث في الخارج لم يكن واضحاً لأدرك الحالة التي دخل فيها.

* * *

ازدادت أعباء العمل في المصنع بسبب تغيب اثنتين من العاملات. صار لازماً علنيا أن نعوض مكانهما وبنفس الأجرة، لأن أي تقصير، كان كفيلاً بإثارة غضب صاحب المعمل، خاصة أنني تركت العمل لفترة من الزمن، وكانت حالة رجوعي أشبه بالصدقة التي قدمها صاحب المصنع لي. أعود من هناك، أعد الطعام لعادل الغارق في سباته. أخذ يستحم يومياً، بشكل هستيري، وكأنه يريد إزالة قذارة العالم بأسره. يتصرف وكأني غير موجودة، وفي لحظات صحوه القليلة، كنت أتوسل إليه أن يحدثني ويجعلني أشاركه فيما آلت إليه حاله. تعلمت أن ألاحق ما أحتاج إليه بدأب. شعرت أنني امرأة حقيقية. الخوف من علي زال عني. كل شيء تبخر وتلاشى عندما وجدت نفسي وحيدة وعادل يبتعد عن كل ما يحيط به. حتى اللحظات التي كنت أنفجر فيها بوجهه، متهمة إياه بالجبن والتخلي عني، كانت لحظات غير صادقة ومحاولة مني لدفعه نحو الحياة. أدركت أن خللاً ما بدأ يتسرب إلى روحه وعقله معاً، والمهمة التي نذرت نفسي لها، هي الوقوف إلى جانبه من جهة وعملي ودراستي من جهة أخرى، وأي شيء آخر لم يعد يعنيني.

عادة القراءة تخليت عنها لأن الوقت لم يعد يسمح لي بذلك. في لحظات فراغي أجلس وأراقب عادل وأحاول جاهدة الدخول إلى عالمه. أهمس له بتفاصيل تلك الليلة، وأحاول أن أقبله. كان يغمض عينيه، ويغطي وجهه محاولاً الابتعاد عن جسدي. مرة استفاق ووجد

رأسه بين نهدي. انتفض وابتعد عني وكأن صاعقة أصابته. لم أحاول إزعاجه بعد ذلك، وانشغلت عنه بدراستي. كان يكفيني أن أذهب يوماً في الأسبوع لأعرف كيف تسير الأمور في الجامعة. اشتريت كل ما أحتاجه من كتب. كنت أجلس إلى جانب عادل في أماسي الشتاء، أتدثر بلحافه وهو مستلق إلى جانبي تاركاً مسافة بين جسدينا، المسافة التي كانت تشعره بالأمان بعيداً عن الرغبة. أقرأ بصوت عال متعمدة استفزازه، لكنه يستمر في التحديق إلى سقف الغرفة دون أن يرف له جفن.

بدأ عادل يضمر، وراح لونه يميل إلى الزرقة.

ورغم إلحاحي المتواصل الذي تحول إلى ما يشبه الإزعاج، لم يتراجع عن حالته. طالبته بزيارة الطبيب النفسي، فنزلت دموعه، ولم يعد للنظر إلي مطلقاً. لم أعد احتمل النظر إليه أيضاً والتمعن في تفاصيله. أسأل نفسي هل كنت أنانية معه وأنا أدعه وحده، وأهتم بعملي وجامعتي وامتحاناتي التي بدأت؟ صار على أحدنا أن يكون واعياً بما يحدث حوله لتسنى للآخر أن يعيش، هذا ما فكرت فيه، وكنت مخطئة جداً في استسهال الأمور التي انفجرت، في أثناء تقديمي لامتحانات نصف العام الجامعية.

عدت يوماً على البيت ووجدت عادل متكوراً على نفسه.

شكله شكل مخلوق غير آدمي، كان أشبه بكرة زرقاء ضائعة. جسده متيبس، يداه قاسيتان، ملتفان على بعضهما كما لو يريد العود إلى البدء، جنيناً في رحم. حاولت أن أفصل رأسه عن رجليه لكني لم أفلح. بدأت بالصراخ وهددته بقتل نفسي.

– قصفوا بغداد! همس.

لم أترك له فرصة ليتلذذ بآلامه، صرخت:

– ليصفوا العالم كله، ما الذي تفعله بنفسك وبي؟ انظر إليّ، ألا أهمك؟ ألم تكن تريد العيش لأجلنا؟ إنهم يقصفون المدن ويخربون الحياة منذ أن وجد الإنسان. لم يتغير أي شيء. ما الجديد في ذلك؟ أنا احتاجك.. لا ترهقني أكثر مما أنا عليه؟

– لم يجبني؟

تابعت:

– مازال لدينا المتسع من الوقت لنفعل أشياء كثيرة.

اقتربت منه وأخذته في حضني:

– ليست المرة الأولى التي يقصفون فيها المدن. منذ طفولتي وأنا أعيش في هذه البلاد وأسمع عن القتل والخراب. ما مضى عام دون دماء هنا أو هناك. لم تعد بالمسألة الجدية. ألم تعتد بعد؟ علينا اعتياد الألم. ألم تقل لي ذلك يوماً، ستتغير الأمور، مجرد حادثة بسيطة وسينتهي القصف قريباً.

بدأت البكاء، وراح نشيجه يتعالى. كيف تفوهت بهذه الكلمات الغبية أمامه؟ كم كنت قاسية وبليدة؟

ازداد تكوراً حول نفسه، وأشار بيده كي أخرج من الغرفة. قمت من مكاني بهدوء تاركة رجليه تتحولان إلى دخان. عرفت أنه لا يريد رؤيتي. صفقت الباب ورائي وقررت أن أغيب لبعض الوقت حتى يشعر بالهدوء. لم أبتعد كثيراً. كنت أحوم حول البيت وبين الأزقة وأنا أفكر بحل يخرج عادل مما هو فيه، هل عاش أيامه ليشهد كل ذلك وليقرر التوقف عن الحياة بطريقته الخاصة؟ أين أصدقاؤه؟ أين رفاقه في الحزب؟ لماذا لا يزوره أحد في الغرفة، وكيف سأتصرف؟ قصفوا بغداد!؟ ولماذا تقصف بغداد الآن، لم يعش عادل في يوم من الأيام سوى لتلك المدن. بيروت، بغداد، دمشق، القدس، القاهرة، وغيظي الآن لأنه لم ولن يستطيع العيش لأجلي، لن يكتفي بي مطلقاً.

عدت إلى الغرفة بعد ساعة. وجدتها فارغة، وثمة ورقة بيضاء ومغلف أسمر مرميان في نفس المكان الذي تكور فيه. لم أحاول الاقتراب منهما، ارتجفت من فكرة مرت أمامي. تهاويت على الفراش، نظرت في أنحاء الغرفة. لم يتغير شيء. عليّ أن أمد يدي فقط لأنهي هلعي. سحبت الورقة البيضاء أولاً. بهدوء غريب لامست أصابعي حوافها. فتحتها. هبت رائحة عادل. ارتجف صدري. عيناي اتسعتا، أرادتا الخروج من محجريهما. قربت الرسالة من وجهي، بدأت الكلمات تقفز إلى عيني:

سامحيني.. تركت لك في الظرف الآخر نقوداً ستكفيك لفترة زمنية طويلة. لن أقف في طريقك. عديني بأنك ستكونين كما عهدتك. ليلة الحب التي قضيتها معك كانت السعادة الوحيدة التي عرفتها طوال خمس وأربعين سنة..

تعبت من فكرة اعتياد الألم. لا أريده..

وداعاً.

مذهولة وأنا أعيد قراءة كلماته، مرمية على حواف الضياع، فارغة من الوجود، انتفض بالذهول وسقوط القلب. هل كنت قاسية إلى الحد الذي جعله يشعر بثقله علي، أم أن القصة أكبر مني؟ هل كنت مجرمة؟ لا بد أني في حلم، وربما الكلمات مجرد وهم لا أكثر. سيرحل ويتركني وحيدة. هل أستطيع العيش دونه؟ ولماذا الآن؟ اللعنات تلاحقني وتأخذ عادل بعيداً عني. ربما يعود بعد قليل، ربما. لكن عادل لم يقدم على أمر ويتراجع عنه، إنه جاد فيما كتبه. رحل ولن يعود، هذه حقيقة، وسأتلاشى ثانية، وأعود إلى شتاتي، سأنتهي إلى العدم كما كنت منذ البدء.

كيف سيكون العالم في غيابه؟

قفزت من مكاني كالمجنونة، وخرجت من غرفتي للبحث عنه. عرفت أنه لن يعود غلي. طرقت باب أميرة في محاولة أخيرة ويائسة للتأكد من وجوده، وألفيت الغرفة مقفلة. ركضت إلى الشوارع أبحث عنه في الوجوه. عيناي تحدقان في كل ما يحيط بهما. كنت ذاهلة عن كل الموجودات حول سوى وجهه. سأمضي بقية عمري تائهة في الشوارع، أبحث عن رجلي الضائع. لن أتوقف أبداً، لن أيأس. سأنام في الطرقات، وسأجوب المدينة شارعاً شارعاً، وأدق كل الأبواب التي أصادفها. سأسأل كل الوجوه التي أعرفها عن رجل اسمر، بشعر أبيض وصدر عريض. رجل ينشر النور أينما اتجه.

سأذهب على أمه.

التمعت الفكرة في راسي. لماذا لا أذهب إلى بيته القديم؟ لقد مررنا من أمامه مراراً، وأقسم أنه سيزوره في يوم من الأيام، سيكون المكان الأول والأخير الذي يفكر فيه، جعلني أراقب أمه مراراً وهي تخرج لجلب الخضار صباحاً، كان يسأل عن أدق التفاصيل التي أراها. رفض فكرة الاقتراب من عائلته، خوفاً عليهم وعلي.

هل قرر الرحيل؟ هل يرحل دون وداع أمه التي كان يقول أنها تبكيه ليل نهار. ولا بد أن يراها في يوم من الأيام: لن أموت قبل أن أودع أمي.

اتجهت نحو الحي القديم في المدينة.

دموعي تسترسل على خدي، ولم أشعر بها إلا بعد وقت طويل. ألفيت نفسي أمام مدخل بيت عائلة عادل. الزقاق مزدحم، والباب الخشبي الجميل المزخرف اختفى خلف الرؤوس البشرية المجتمعة. تخيلت بغداد تحترق وعادل يحترق معها، عاودتني ذكرياته عن

حصار بيروت وعن المنافي المتلاحقة التي كبر فيها. شعرت أني تافهة وأم كل آلامي وعذاباتي لا تساوي شياً أمام حزنه. هل تلزم الإنسان كل هذه المصيبة لينتهي؟ هل شعر أنه مشلول؟ ولماذا هرب مني؟

خيط حريق مؤلم يخترق خدي.

عيناي تخترقهما سكاكين من النيران.

أغمضتهما قليلاً، في محاولة لاستعادة الرؤية. كان المشهد أكبر مما احتمل. حشد كبير من الناس يتجمعون حول بيت عادل، والباب المفتوح بالكاد يتسع لمرور نسمة هواء. ربما ألقي القبض عليه، فكرت بذلك. تسارعت نبضات قلبي، وأحسست أن في استطاعتي ان أفعل أي شيء لمعرفة ما جيري.

حشرت نفسي بقوة بين الجموع. كدت أختنق. البعض يصرخ في وجهي. تحولت إلى ثور هائج متوحش. بدأت أرغي وأزبد وأنا ابعد الكتل اللحمية المتلاصقة. امتدت يد ضخمة وانتشلتني من بين الجموع. رفعت راسي ورأيت وجهاً أسمر دفعني إلى الأمام. دخلت معه البيت. كان البيت يعج برجال شرطة، وثمة رجال آخرون يرتدون ثياباً مدنية. صوت نحيب يتعالى من الغرفة المجاورة. اقترب مني الرجل الذي انتشلني كخرقة، وصرخ: أنت، ما الذي تريدينه؟ لم أجبه. كنت ذاهلة وخائفة، لا يخرج الكلام من حلقي، وكأنني في كابوس. صرخ ثانية وأنا أدير راسي تجاه صوت النشيج.خرج صوت امرأة أخرى، ليست أنا بالتأكيد، كان أجش. واستقر في حلقي:

– ما الذي حدث؟

حدجني الرجل بنظرة فاحصة وتركني ثم غاب بين الزحام. مددت رأسي نحو الغرفة الداخلية. لم أستطع تبين شيء، وأنا أمد عنقي. أمسكني الرجل ذو الملامح المألوفة من يدي وجذبني نحو غرفة مجاورة.

وجدت رجلاً آخر يجلس هناك، وكان متجهماً. على جانبيه يقف رجلان ضخمان بعضلات مفتولة. حدجني بنظرة قاسية. إني أعرف هذا الرجل، رأيته في مكان ما.. أين كان ذلك؟ قفزت أميرة إلى خاطري وتذكرت الصورة ذات الإطار الذهبي. كان جالساً على كرسي من الخشب المحفور والمطعم بالصدف، يضع رجلاً فوق رجل. أعتقد أني أعرفه.. إنه صاحب الصورة. مد رأسه في اتجاهي متفحصاً، ثم همس: هل تعرفين الميت؟

– الميت؟!!!

رددت وراءه، ولم أستطع التفوه بحرف. قام من مكانه ورأيت شفتيه تنفرجان وتنغلقان، ثم صمت عابس الجبين. بدأت أفقد كل شيء: الأصوات، الرؤية، وكل ما يحيط بي. كان ذلك بداية التحول.

خطف الرجل ذو الملامح المألوفة حقيبتي من يدي، وأنا واقفة دون مقاومة. لم أقم بأي ردة فعل، ورغم أنني أنظر غليه، إلا أنني لا أراه. كان يمسك بطاقتي الشخصية بيده. أخذني من يدي، بعد أن أشار له رجل الصورة المذهبة بذلك، دفعني بقوة أمامه. سرت معه دون أدنى مقاومة. تفرق الجمع قليلاً، ورأيت سيارة إسعاف، تقف أمام البيت. السيارة البيضاء التي وقفت خلف سيارة الإسعاف، كانت تشبه السيارة التي لاحقتني يوماً من شارع إلى آخر. عاودني اللهاث القديم وأردت الهروب. فتح باب السيارة، ودفع الرجل بجسدي على داخلها، وكأنه يتخلص من قذارة مميتة. لمحت كتلة بيضاء فوق محفة جلدية، يحملها عدة رجال. الأصابع السمراء المتدلية منها، التي امتلأت بالدماء جعلتني افتح عيني على اتساعهما. الأصابع التي أحفظها، وأحتفظ تشكيلات الأوردة والعروق وانثناءات الجلد فيها، واستدارة الأظافر، تلك الأصابع المتدلية من المحفة، والتي صنعت مني امرأة، كانت ممتلئة بالدماء. صرخت كالمجنونة. الرجلان الجالسان أمامي نظرا بذهول إليّ. الرجل الأول نظر بقرف إلى سيارة الإسعاف قائلاً:

– إلى جهنم.. خسر دينه ودنياه.

قال الثاني وهو يغمض عينيه تأثراً:

– المسكينة أمه، بالكاد سلم عليها ودخل الحمام ثم قطع شرايين يديه.

* * *

ازداد صراخي، واتسعت حدقتا عينيّ حتى الانفجار.

توقف قلبي عن الخفقان.

تيبست ضلوعي.

وآخر ما رأيته قبل الغيبوبة، كف ذلك الرجل القوي، ذي النياشين، وهي تهوي على وجهي.